فكر السكاكي الفلسفي ورؤيته

الماهية ــ الأثر ــ العلاقة بالبلاغة الجديدة

دكتورة

وداد نوفل

كلية التربية جامعة المنصورة

فكر السكاكي الفلسفي ورؤيته

الماهية – الأثر – العلاقة بالبلاغة الجديدة

د. وداد نوفل

كلية التربية جامعة المنصورة

مدخل

درج الدارسون المحدثون ممن تناولوا كتاب مفتاح العلوم للسكاكي بالدراسة على اتهام السكاكي بتعقيد البلاغة وجمودها واعتماده على الحد والتعريف والتقسيم والتعقيد أكثر من اهتمامه بالشاهد وتحليله وما فيه من بلاغة، وقد أرجعوا ذلك لدراسة السكاكي لعلمي المنطق والفلسفة وسيطرتهما عليه، وعلى رؤيته للبلاغة مما جعل السكاكي متهما عندهم بالجمود الذي أصاب البلاغة، وبوقف نموها؛ وتمثل ذلك – في رأيهم – في اقتصار كتب البلاغة بعده على تناول المفتاح بالشرح أو الإيضاح أو الاختصار.

وممن عرض لذلك الرأي د. شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطور وتاريخ، أما د. أحمد مطلوب، فكان من أكثر الباحثين تبنياً لوجهة النظر تلك، وكان كتابه البلاغة عند السكاكي – على أهميته – من أكثر الكتب تحاملاً على السكاكي، وقد كرر د. مطلوب كلامه عن السكاكي في كتابيه مناهج بلاغية، وأساليب بلاغية. وأصبح السكاكي محبوساً في هذه التهمة لا تفارقه.،

وقد أدى تداول هذه الآراء إلى إعادتها وتكرارها من قبل الباحثين دون مراجعة أو دراسة خاصة وأنها قيلت من قبل أساتذة كبار.

ولعل ما سبق كان مقبولاً – على ما فيه من تجنٍ على السكاكي – حين كان مفهوم البلاغة مرتبطاً بالتأثير والتزيين والإمتاع، أما ما حدث في عشرينات هذا القرن – من تغير مفهوم البلاغة لترتبط بالحجاج بدلاً من التزيين – وبالاستدلال والبرهنة لكي تُحدث الاحتجاج وبالإقناع إلى جانب الإمتاع كما وضح ذلك في نظريات الحجاج المختلفة – ما حدث في عشرينات هذا القرن يؤدي إلى ضرورة إعادة النظر في دراسة فكر السكاكي المرتبط بالفلسفة، وفي مفهوم الفكر الفلسفي عنده المرتبط برؤيته للعلوم وماهية هذا الفكر وأثره، كما يؤدي ارتباط مفهوم الحجاج في الدراسات البلاغية التداولية وتقاطعه مع الدوائر الفلسفية المنطقية من الحجاج الاستدلالي والقياس والبرهنة والجدل – يؤدي ذلك – إلى ضرورة إعادة

النظر فيما أتى به السكاكي من رأي تم تجاهله تماماً من قبل القدماء والمحدثين، وهو رأيه في ارتباط علمي المعاني والبيان بعلم الاستدلال، وأنه مكمل لهما.

وعلى هذا فقد قسمنا الدراسة إلى مبحثين.

(1) المبحث الأول:

وسوف يهتم هذا المبحث بالسكاكي من حيث بيئته العلمية، وحياته وطبيعة شخصيته التي لم تكن محل اهتمام عند الباحثين، كما يهتم بعلاقة هذه الشخصية بفكره الفلسفي وبماهية هذا الفكر وأثره على علماء البلاغة في عصره، وبعد عصره ممن تناولوا مفتاحه بالشروح أو التخليص، أو الإيضاح.

(2) المبحث الثاني:

ويتناول هذا المبحث الفكر الفلسفي عند السكاكي وعلاقته بالبلاغة الجديدة من خلال عرض رأي السكاكي في ارتباط علمي المعاني والبيان بعلم الاستدلال، وما يكون من مفهوم الاستدلال عنده والعلاقة أو الرابطة بين علم الاستدلال وبين علمي المعاني والبيان، ومدى أصالة ذلك الرأي عنده، والفرق بين ما ذكره السكاكي وما ذكره الجرجاني عن ذلك، وعلاقة ذلك بمفهوم الحجاج في البلاغة الجديدة.

ثم تكون الخاتمة التي يتجمع فيها ما توصلت الدراسة إليه من نتائج.

ولعل هذه الدراسة تعيد النظر في فكر السكاكي وفلسفته في البلاغة التي اتسمت الدراسات فيها بالقصور فظلمته وتجنت عليه وتوقفت عند حد استخدامه للفلسفة والمنطق، ولم تستوعب رؤيته الفلسفية الموسوعية للبلاغة،

والله – سبحانه وتعالى – أسأل التوفيق والسداد،،،

المبحث الأول
الفكر الفلسفي عند السكاكي
الماهية والأثر
البيئة العلمية في عصر السكاكي:

ولد يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي، أبو يعقوب السكاكي، سراج الدين الخوارزمي سنة خمس وخمسين وخمسمائة[1] ، وتعد خوارزم كورة على حافتي نهر جيحون في آسيا الصغرى، فتحها العرب في عام 93هـ/712م، وأصبحت ثغراً من ثغور الإسلام[2]. وقد تميزت خوارزم ببيئة علمية نشطة يسعى أهلها سعياً دءوباً وراء العلم وتحصيله، ويذكر ذلك المقدسي فيقول عنهم أنهم: "أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب، وأقل إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي قد

تقوم وزجاً" [3]. ويضع المقدسي يدنا على عدد من الحقائق؛ الأولى: تنوع العلوم التي سادت في خوارزم ما بين الفهم، والقرائح، والأدب، والعلم، وبين علوم القرآن، الثانية: الازدهار العلمي الذي شهدته خوارزم، الثالثة: أن العلم فيها لم يكن موقوفاً على التلقي، لكنه كان يشهد إبداعات طلاب العلم الذين ينشطون حتى أنهم يتقدمون أئمتهم، ويعد ذلك مفهوماً ومقبولاً إذا ما علمنا أن المذهب السائد في ربوع خوارزم هو المذهب الحنفي، وأن "الاعتزال انتشر انتشاراً كبيراً حتى لتكاد لفظة "خوارزمي" ترادف لفظة "معتزلي" [4]. ويتحدث الزمخشري عن إيجابية الاعتزال فيها فيجعله "رأس فضائل خوارزم"[5].

وقد تجلى اهتمام الخوارزميين بالعلم والأدب بدءاً من عامة الناس؛ حيث نراهم يهتمون بتثقيف الطبقات الدنيا من الشعب، فأسسوا المدارس في مدن الدولة المختلفة...، وكان يقوم بالتدريس فيها كبار الفقهاء والأدباء في الدولة، ومن هؤلاء شهاب الدين أبو سعد بن عمران،... وكان من المتضلعين في أصول المذهب الشافعي... واللغة والطب، ولعلو منزلته في الدولة، عُهد إليه بالتدريس في خمس مدارس بمدينة خوارزم؛ وفضلاً عما تقدم كان لهذا الرجل فضل كبير في تأسيس دار للكتب في هذه المدينة"[6].

وقد أسهمت هذه المدارس التي انتشرت في مختلف المدن الإسلامية لاسيما في بغداد ومدن إيران وما وراء النهر في رواج العلوم في ذلك العصر، فكان علماء الدين الذين انشغلوا بالعلوم الدينية وتدريسها والتأليف فيها، وكانت أيضاً العلوم الأدبية التي ساعد على ازدهارها تشجيع السلاطين والأمراء والوزراء لها [7]. هذه البيئة العقلية المزدهرة في العلوم المختلفة أوجدت علماء شكلوا أصولاً قوية بآرائهم في التفسير واللغة والبلاغة وأصول الفقه وعلم الكلام وغير ذلك من العلوم، وهم علماء يهتدي بهم اليوم وما بعد اليوم؛ ومنهم عبدالقاهر الجرجاني والزمخشري والراز والمطرزي وغيرهم.

هذه البيئة العلمية المزدهرة الزاخرة هي بيئة السكاكي وهذا العصر الذي شهد ثمار ما قدمه العلماء من إرساء لأصول الفكر البلاغي ومنطلقاته سيما عند عبدالقاهر الجرجاني هو عصره، وقد شهد السكاكي ذلك التناول المختلف للعلوم قبله وفي زمانه والذي يقوم على النقل والعقل معاً.

حياة السكاكي وطبيعة شخصيته:

بالرغم من قلة المعلومات التي وردت عن حياة السكاكي إلا أنه مما ذكر شيء يستوقف النظر، وهو اسم السكاكي نفسه؛ فقد تباينت المصادر في ذلك أهو نسبة إلى صنعة السكة؟ أم نسبة إلى قرية بنيسابور تُسمى سكاكة؟ وفي ميل للرأي الأول يذكر السيوطي: "السكاكي – بالفتح والتشديد – يسميه أبو حيان في الارتشاف ابن السكاك فهو إلى جده، وكأنه إلى صنعة السكة التي يضرب بها الدرهم" (8). بينما جاء في الفوائد البهية ما يذكره مصطفى بن محمد البناني أن نسبته إلى سكاكة قرية بنيسابور، وقيل بالعراق، وقيل باليمن"(9).

ولايوجد ترجيح لأحد الرأيين على الآخر؛ فالرواية الأولى يُضْعِفُها قول السيوطي "وكأنه". لأنها أضافت معنى الشك وعدم الوصول إلى معلومة قاطعة، والرواية الثانية – أيضاً – لم ترق إلى حد اليقين لعدم ثبوت تحديد المكان أهو بنيسابور؟ أم بالعراق؟ أم باليمن؟ وعدم وجود من يؤكد ذلك ببناء الفعل للمجهول في "قيل".

ويثير الخلاف بين الروايتين الحيرة فيما يترتب عليهما من عمل السكاكي بالحدادة والسكاكة، وهو ما تؤكده المصادر (10) من أن "الإمام السكاكي كان من جملة فضلاء الدهر والعلماء العالية المنزلة والقدر، *ماهراً في العلوم الغريبة* . وكان في مبدأ أمره حداداً، فعمل بيده محبرة صغيرة من حديد، وجعل لها قفلاً عجيباً، ولم يزد وزن تلك المحبرة وقفلها عن قيراط واحد، وأهداها إلى ملك زمانه. ولما رآه الملك وندماء مجلسه الرفيع لم يزيدوا على الترحيب بالرجل على صنعته، فاتفق أنه

كان واقفاً في الحضور إذ دخل رجل آخر فقام الملك احتراماً لذلك الرجل، وأجلسه في مقامه، فسأل عنه السكاكي فقيل إنه من جملة العلماء، فتفكر السكاكي في نفسه أنه لو كان من هذه الطائفة لكان أبلغ إلى ما كان يطلبه من الفضل والشرف والقبول.

وتسرد الروايات – في قصة تحتاج إلى كثير من التمحيص – كيف أثار السكاكي ذلك الموقف ليتجه صوب العلم وتحصيله وجعله شغله الشاغل، وقد كان آنذاك في الثلاثين من عمره، وتبين الروايات بناء على ذلك – مدى المعاناة التي لقيها السكاكي حينما قال له المدرس في المدرسة التي ذهب إليها "لعلك في سن لاينفعك فيه التعلم، وأرى ذهنك مما لايساعدك على أمر التحصيل، فلابد فيما هنالك من الامتحان. ثم أخذ يعلمه هذه المسألة التي هي من اجتهاديات إمامهم الشافعي، وقال له: قال الشيخ: جلد الكلب يطهر بالدباغة. وجعل يكرر هذه العبارة عليه إلى أن بلغ ألف مرة. ثم لما جاءه من الغد طلب منه أن يحاكي درس أمسه الذي لقنه ألف مرة، فقال: قال الكلب: جلد الشيخ يطهر بالدباغة. فضحك منه الحاضرون. وعلمه الأستاذ شيئاً آخر، وهكذا إلى أن مضى من عمر السكاكي في ذلك التعب من أمر التحصيل عشرة أعوام فيئس من نفسه بالكلية، وضاق خلقه، فخرج إلى البراري والجبال فاتفق أنه كان يتردد يوماً في شعب الجبال إذ وقع نظره على قليل من الماء يتقاطر من فوقه على صخرة صماء، وقد ظهر فيها ثقبه من أثر ذلك التقاطر على عهد بعيد فاعتبر من نفسه بهذه الكيفية وقال: ليس قلبك بأقسى من هذه الحجرة، ولا خاطرك بأصلب منها حتى لاتتأثر بمراقبة التحصيل.

ورجع ثانياً إلى المدرسة بعزمه الثابت وتصمم في الأمر إلى أن فتح الله عليه أبواب العلوم والمعارف والأفنان وحاز قصب السبق على جميع الأماثل والأقران من العلماء والأعيان" [11]. ومرة أخرى نجد أنفسنا في حيرة من أمر السكاكي في تلك القصة التي تثير عدداً من التساؤلات منها:

1 – مدى صحة تلك القصة؟.

2 – هل من المعتاد أن يبدأ الإنسان في تحصيل العلم بعد الثلاثين من عمره وتكون ثمرته ما أنجزه السكاكي؟.

3 – أظهرت القصة تناقضاً عند السكاكي بين مدى تعثره في بداية تعلمه، تلك البداية التي استغرقت "عشر سنوات"، وبين ما استطاع تحصيله من علوم مختلفة في السنوات التالية.

4 – إذا كان السكاكي قد ولد في عام (555هـ) وتوفى في عام (626هـ) فإنه يكون قد عاش حوالي (70 عاماً) قضى منهم ثلاثين عاماً بعيداً عن العلم تماماً، وعشر سنوات مرحلة انتقالية تدريبية تخزينية، والأربعين عاماً الأخيرة من عمره هي التي تركز فيها تلقي العلم وتحصيله، ومن ثم إنتاجه ممثلاً في عدد من المؤلفات هي [12]: كتاب مفتاح العلوم، كتاب شرح الجمل، كتاب التبيان، كتاب الطلسم باللغة الفارسية، ورسالة في علم المناظرة، ولم يطبع منهم إلا كتاب مفتاح العلوم فقط، ولم تذكر المصادر – مطلقاً – سنة تأليف كتاب مفتاح العلوم، لكن ما فيه من فهم لآراء من سبقوه وعلم وتمثل خاصة عبدالقاهر الجرجاني، وإضافته ما اختص به هو من دراسته لعلمي الفلسفة والمنطق يدلل على أن تأليف الكتاب كان في وقت متأخر من حياته [*]. نقول إذا كان الأمر كذلك فهل يمكن أن تنتج أربعون عاماً هذا الكم من الكتب المتنوعة مع إضافة السكاكي لبصمته العلمية الخاصة به والتي تتضح جلية في ذلك الكتاب الذي وصل إلينا وهو مفتاح العلوم؟.

ولايٌفهم أن التلويح بالتشكيك هو المقصد من وراء تلك التساؤلات في قصة السكاكي وكيفية تحصيله للعلم؛ حيث توجد مسلمات وحقائق تخص السكاكي نفسه فيما جاء من أحداث تلك القصة، كما توجد مسلمات وحقائق يختص بها الإنسان مطلقاً. تأخذ هذه المسلمات والحقائق القصة لتسير بها في اتجاه آخر معاكس لتكون كالتالي:

1) لم يكن السكاكي فرداً عادياً فيما يقوم به حينما كان حداداً؛ يدل على ذلك هذا الوصف لتلك المحبرة التي صنعها؛ فقد عملها بيده، وهي من الحديد، وهي صغيرة، وجعل لها قفلاً عجيباً، ولم يزد وزن تلك المحبرة وقفلها عن قيراط واحد ويمكننا تلخيص ذلك في كلمات ثلاث يوصف بها السكاكي في عمله وهي تمكن – إتقان – ابتكار.
2) كان السكاكي يحب الإطراء على عمله وتقدير ما فيه من إتقان وإبداع وابتكار، وتقدير الجهد الذي يتكلفه، يدل على ذلك ما أصابه من إحباط لعدم تقدير الملك له التقدير الذي يستحقه.

يَهْوَى الثَّنَاءَ مُبَرِّزٌ وَمُقَصِّرٌ حُبُّ الثناءِ طَبِيعَةُ الإِنْسَانِ

فما باله حينما يكون مبرز ومبدع حقاً!.

3) لم تكن شخصية السكاكي ترضى إلا بالمكانة العليا والبروز والسبق والتقدم بدليل اتخاذه قراراً يصعب على غيره مجرد التفكير فيه؛ وهو الانتقال من مجال الحدادة والسكاكة الذي يعتمد على المهارات اليدوية إلى مجال مختلف تماماً وهو مجال العلم؛ الذي يعتمد على المهارات التفكيرية.
4) تُثبت تلك القصة – أيضاً – صلابة شخصية السكاكي وقوته وأخذه نفسه بغير لين ولا تخاذل؛ فقد مضى فيما عزم عليه من انتقاله من السكاكة إلى تحصيل العلوم، وقد عانى معاناة شديدة من جراء ذلك وقد استمرت تلك

المعاناة عشر سنوات إلى أن أظهر ضيقه ويأسه، وأظن ان ضيقه ويأسه لأنه كان مايزال في طور التحصيل ولماّ يكن قد انتفع بعد بثمار علمية تحقق له ما أراد من إحراز سبق عن طريق العلم.

5) شخصية السكاكي وما يتضح فيها من ذلك الاستدلال الذي قاله حينما وقع نظره على قليل من الماء يتقاطر من فوقه على صخرة صماء، وقد ظهر فيها ثُقْبَة من أثر ذلك التقاطر على عهد بعيد، فاعتبر من نفسه بهذه الكيفية، وقال: ليس قلبك بأقسى من هذه الحجرة، ولا خاطرك بأصلب منها حتى لايتأثر بمراقبة التحصيل. وقد مكنه ذلك الاستدلال – حينما أوجد العلاقة بين الوقت وبين حتمية الأثر مع ديمومة العمل في كل من الصخرة الصماء وقلبه – مكنه ذلك الاستدلال من الاقتناع التام بقطعية الأثر المتحقق. وكان ذلك الاستدلال هو الدافع لرجوعه مرة أخرى إلى المدرسة بعزم ثابت، وتصميم على الأمر جعله يحوز السبق على جميع أقرانه من العلماء.

6) لعل ما طرحناه من تحليل لهذه القصة يضع يدنا على ملامح من شخصية السكاكي التي لا نجد لها أثراً في الروايات والمصادر، كما تجعلنا نميل إلى تصديقها في ضوء ما عرضناه وتجعلنا نفهم جيداً تلك الأبيات الشعرية الأربعة الوحيدة التي وجدت للسكاكي حيث يقول[13]:

حَتّامَ تُنْكِرُ قَدْرِي أَيُّهَا الزَمَن بَغْيّاً وَتُوغِرُ صَدْرِي أَيُّها الزّمِن؟

أَمَا يُهِمُّكَ شَيءٌ غَيْرَ غَدْرِكَ بي مَاذَا اسْتَفَدْتَ بِغَدْرِي؟ أَيُّهَا الزّمن؟!

قُلْ لي إِلى كَمْ أَرَىَ ٱلأَحْدَاثَ تَرْشُقُنِي قَدْ عِيلَ صَبْرِي، أَتَدرِي أَيُّها الزّمَن؟

أَرَىَ بُدُورَ ٱلأَقْوَامِ طَلَعْنَ لَهُمْ اَلاَ طُلُوعٌ لِبَدْرِي؟ أَيُّهَا الزّمَن؟

وفي رأيي أن السكاكي قال هذه الأبيات في السنوات العشر التي عانى فيها انتقاله من الحدادة إلى العلم؛ فهي تصور مدى عتبه على الزمن واستبطائه نيل حق يستحقه من الزمن باعترافه بمكانة السكاكي وما يجب أن يكون عليه.

وقد تعامل د. أحمد مطلوب مع هذه الأبيات باستهانة شديدة، ورأى أنها أبيات متكلفة لاروح فيها ولاجمال، ولا تدل على أن السكاكي يحسن الشعر، أو يستطيع نظمه حتى كصغار الشعراء، ويرى أنه – أغلب الظن – قد نظم هذه الأبيات لتكون له شاهداً في فصل القافية وإلا فأي روعة فيها، وأي أثر يهز النفس؟[14].

لم يكن السكاكي شاعراً قط، ولم يدّع ذلك يوماً، ولم يروَ عنه إلا هذه الأبيات الأربعة فقط، وما عرضنا له من سمات شخصية السكاكي في ضوء القصة التي رويت عنه تجعلنا نتفهم تماماً ونتعاطف مع السكاكي فيما مر به من ظروف نفسية ضاغطة في تلك السنوات الانتقالية العشر دعته إلى التنفيث عنها بهذه الأبيات الوحيدة التي قالها.

والأسئلة المترتبة على ذلك – الآن – هي ما علاقة تلك الشخصية عند السكاكي بفكره الفلسفي، وما ماهية ذلك الفكر وأثره على من تناولوا المفتاح قديماً وحديثاً، وما قيمته؟.

فكره الفلسفي – الماهية والأثر:

لاشك أن شخصية مثل شخصية السكاكي – كما بينا بعضاً من ملامحها – لم تكن لترضى بما هو عادي حتى في تحصيلها للعلم؛ ويؤازر استنتاجاتنا ما تذكره المصادر عن العلوم الكثيرة المختلفة التي حصلها السكاكي وبرع فيها؛ فقد تعلم السكاكي الفقه الحنفي، وتعدى التعلم ليبرع ويصبح "من فقهاء الحنفية"[15] وقد درس اللغة الفارسية، ويدل على معرفته بها تأثره بكتاب "حدائق السحر في دقائق الشعر" لرشيد الدين الوطواط، وهذا الكتاب باللغة الفارسية، ولم يترجم إلا قبل سنوات [16]. ولم يقف السكاكي عند حد التعلم لكنه أتقن الفارسية حتى ألف بها "كتاب الطلسم"[17]. كما أنه أتقن السحر واشتغل به وعُرف ببراعته فيه حيث يذكر النسوي في سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي عنه أنه "من أفاضل خوارزم صاحب فنون بارعة، وقدم لأعلام العلوم قارعة، وكانوا يعتقدون المذكور سحر بعض الكواكب فردّها عن سراها، ويسد المياه بنفثاته في مجراها، لما كان عندهم من كمال فضله، وله في سائر الفنون تصانيف يراها آيات البراعة ومعجزات الصناعة" [18]. وقد درس اللغة العربية، والعلوم القرآنية واللغوية، ودرس علم المنطق وعلم الكلام وحذقها إلى الدرجة التي جعلته يؤلف كتاب "مفتاح العلوم" بكل ما يحمله هذا الكتاب في طياته من أسرار شغلت البلاغيين بعده لسنوات طويلة كما هو معلوم في تاريخ البلاغة.

والمثير للدهشة أن كل الكتب التي تناولت المفتاح بالشروح والتلخيصات أو الإيضاحات لم تذكر – مطلقاً – تهمة التعقيد للبلاغة التي اتهمه بها المحدثون [*]؛ حيث ذكر د. شوقي ضيف عن البلاغة عند السكاكي أنها تحولت "إلى علم بأدق المعاني لكلمة علم، فهي قوانين وقواعد تخلو من كل ما يمتع النفس؛ إذ سلط عليها المنطق بأصوله ومناهجه الحادة حتى في لفظها وأسلوبها الذي لايحوى أي جمال، وما للجمال والسكاكي؟ إنه بصدد وضع قواعد وقوانين كقوانين النحو وقواعده، وهي قواعد وقوانين تُسْبَك في قوالب منطقية جافة أشد ما يكون الجفاف"[19].

أما د. أحمد مطلوب فقد تحامل على السكاكي بدرجة كبيرة جداً حيث يراه قد نظر إلى البلاغة نظرة فلسفية وقسمها هذا التقسيم الذي أوقفها وعاق نموها" [20]. وجعل هدف السكاكي من كتابه هو التعقيد والإلغاز على المتلقي والتمحل في التقسيم يقول: "ولكن السكاكي كان مولعاً بعلم الكلام والفلسفة، وأنىّ له أن يذكر أنواع الطلب من غير أن يعقدها ويجعل الدارس في حيرة من أمره. وليته وقف عند هذا التمحل في هذا التقسيم[21]،

بل إن د. مطلوب يخرج كتاب السكاكي عن ملاءمته للبلاغة فيقول عنه: "وهذه التقسيمات تدل على نظرته المنطقية المعتمدة على الحصر والتقسيم من غير أن يلتفت إلى أنه يتكلم في البلاغة" [22]، ولم يترك د. مطلوب مناسبة يُذكر فيها المتكلمون ومدرستهم في البلاغة إلا وتحدث عن السكاكي ورأيه فيه من أنه هو الذي قولب البلاغة قولبة منطقية أدت إلى جفافها وإعاقتها ووقف نموها. ولا يمكن لعاقل أن يُنكر مافي كتاب المفتاح من صعوبة، لكننا أيضاً لابد أن نكون منصفين فننظر لكتاب المفتاح من خلال مفهوم الفكر الفلسفي عنده ماهيته، وأثره من خلال الآتي:

1 – الماهية: وجهة نظر السكاكي في العلم والعلاقة بين العلوم وما يمكن أن نسميه مفهوم فلسفة العلم عنده؛ حيث يحدد السكاكي حديثه في كلامه عن الأدب وكيفية تحصيله، فيقول: "فإن نوع الأدب نوع يتفاوت كثرة شعب وقله، وصعوبة فنون وسهولة، وتباعد طرفين وتدانيا، بحسب حظ متوليه من سائر العلوم كمالاً ونقصاناً، وكفاء منزلته هنالك ارتفاعاً وانحطاطاً، وقدر مجاله فيها سعة وضيقاً"[23].

ينص السكاكي في كلامه على فكرة غاية في الأهمية، وهي فكرة الموسوعية في العلم والتكامل بين العلوم في العصر الحديث حيث ينص على أن نوع الأدب يتفاوت صعوداً أو هبوطاً اعتماداً على مدى تحصيل صاحبه من سائر العلوم، ولم يحدد السكاكي هذه العلوم، لكنه جعلها عامة ومطلقة، كما أنه قد استخدم كلمة "سائراً" التي تعطي معنى الكثرة والشمول، وربط إجادته وكفاءته في الأدب بإجادته وكفاءته في العلوم الأخرى، ويُعد كتاب المفتاح تطبيقاً عملياً لما نادى به السكاكي ولفلسفته في العلم ورؤيته للعلاقة بين العلوم يقول معلناً عن ذلك الفكر الذي طبقه في المفتاح "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة، ما رأيته لابد منه، وهي عدة أنواع متآخذة. فأودعته علم الصرف بتمامه، وأنه لايتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة، وقد كشفت عنها القناع. وأوردت علم النحو بتمامه وتمامه، بعلمي المعاني والبيان. ولقد قضيت بتوفيق الله منها الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال، لم أر بداً من التسمح بهما. وحين كان التدرب في علمي المعاني والبيان موقوفاً على ممارسة باب النظم وباب النثر، ورأيت صاحب النظر يفتقر إلى علمي العروض والقوافي، ثنيت عنان القلم إلى إيرادهما"[24].

لم يكن الفكر الفلسفي عند السكاكي ضيّقاً كما فهمه المحدثون من أنه استخدام ألفاظ المناطقة وأفكار الفلاسفة لأنه قد درس هذه العلوم ومن ثم فقد سيطرت عليه، وسيطرت على دراسته للبلاغة، لقد كان عمل السكاكي في المفتاح عملاً يُسَيّره فكر وفلسفة وخطة عَرَضَها في مفتتح كلامه بطريقة واضحة، وإن لم يُلتفت إليها من قبل لِيُقَّيم الدارسون السكاكي وفق ما صرح به في فلسفته تلك، ورؤيته للعلوم والعلاقة بينها بهذه الكيفية.

2 – كان الفكر الفلسفي عند السكاكي – في نظرته للعلم – فكراً فاهماً واعياً بحدود ما يقول وما يدعو إليه من تكامل العلوم؛ وتجلى ذلك في إدراكه

للمدى الذي يحتاجه كل علم من الآخر وقد وضح ذلك في قوله: "وما ضمنت جميع ذلك كتابي هذا إلا بعدما ميزت البعض عن البعض، التمييز المناسب، ولخصت الكلام على حسب مقتضى المقام هنالك، ومهدت لكل من ذلك أصولاً لائقة، وأوردت حججاً مناسبة، وقررت ما صادفت من آراء السلف، قدس الله أرواحهم، بقدر ما احتملت من التقرير، مع الإرشاد إلى ضروب مباحث قلت عناية السلف بها، وإيراد لطائف مفتنة ما فتق أحد بها رتق إذن"[25].

أمـا الأثـر:

فنجد أن آراء الدارسين المحدثين تتسم بالمغالطة الشديدة؛ حيث يرون أن السكاكي بنظرته الفلسفية إلى البلاغة وتقسيمها تقسيماً منطقياً يُعد مسئولاً عن وقف نمو البلاغة وإعاقتها – كما عرضنا لذلك في الصفحات السابقة – وهذا رأي غير صحيح على الإطلاق؛ تحكمه المغالطة وعدم الموضوعية فأياً ما يكون الحكم على عمل السكاكي في كتابه "مفتاح العلوم" فما جريرته هو في أن يتخذ البلاغيون بعده من الكتاب هدفاً للدراسة؟ وما ذنبه هو في أن يوقف البلاغيون بعده عطاءهم الابتكاريّ في البلاغة؟ أم هل تُغَيِّب عقولنا لنقول أن السكاكي قد ألقى بتعويذاته السحرية على البلاغيين بعده لينشغلوا بكتابه إلى هذا الحد؟ أم أننا لم نفهم عمل السكاكي جيداً فنعتناه بالعُقم والجمود؟. والتساؤل الأخير والمهم هل هذا الادعاء صحيحاً؟ هل أوقف البلاغيون – بعد السكاكي – عقلهم وإبداعهم في البلاغة على ما جاء في المفتاح؟.

ويتكفل من تناولوا كتاب "المفتاح" بالشروح والإيضاح بالإجابة عن ذلك في حديثهم عن المفتاح وتلخيصه وعن العلم عند أهل بلاد المشرق؛ يقول بهاء الدين السبكي في شروح التلخيص "(أما بعد) فإن تلخيص المفتاح في علم البلاغة وتوابعها بإجماع من وقف عليه، واتفاق من صرف العناية إليه أنفع كتاب في هذا

العلم صنف وأجمع مختصر فيه على مقدار حجمه ألف... وأما أهل بلاد المشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ولاسيما العلوم العقلية والمنطق، فاستوفوا هممهم الشامخة في تحصيله. واستولوا بجدهم على جملته وتفصيله. ووردوا مناهل هذا العلم فصدروا من عنها بملء سجلهم. وكيف لا وقد أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم. فذلك عمروا منه كل دارس. وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد عنه الحارس. وبلغوا عنان السماء في طلبه ولو كان الدين بالثريا لناله رجال من فارس إلى أن خرج عنهم المفتاح فكأن الباب أغلق دونهم وظهر من مشكاة بلاد الغرب المصباح فكأنما حيل بينه وبينهم وأدارت المنون على قطبهم الدوائر. فتعطلت بوفاته من علومه أفواه المحابر وبطون الدفاتر. وانقطعت زهراتهم الطيبة عن المقتطف. وتسلط على العضد لسان من يعرف كيف تؤكل الكتف، فلم نظفر بعد هؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى من أهل تلك البلاد بمن مخض هذا العلم فألقى للطالب زبدته.

ومخض النصح فنشر على أعطاف العاري بردته. ولا حملت قبول القبول إلينا عنهم بطاقة. ولا حصلت للمتطلعين لهذا العلم على تلك الأبواب طاقة. ولا رأينا بعد أن انطمست تلك الشموس المشرقة، واندرست طبقة تحرى الفرقة. ولم يبق إلا رسوم هي من فضائلهم مسترقة"[26].

وكلام السبكي عن العلوم عند أهل المشرق، وعن قيمة المفتاح طويل جداً اجتزأنا منه مايُبين عن بقيته، وما يُبين عن رأي السبكي في المفتاح وفي التلخيص المبني على المفتاح.

أما القزويني فيقول في فاتحة كتابه التلخيص في علوم البلاغة "وأما بعد: فلما كان علم البلاغة وتوابعها من أجلّ العلوم قدراً، وأدقها سراً إذ به تُعرف دقائق العربية وأسرارها، وتكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها؛ وكان القسم الثالث من مفتاح العلوم الذي صنفه الفاضل العلامة أبو يعقوب يوسف السكاكي، أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً، لكونه أحسنها ترتيباً، وأتمها تحريراً، وأكثرها للأصول جمعاً..."[27].

نكتفي بعرض رأي السبكي والقزويني فيما ذكراه عن السكاكي وعن كتاب المفتاح لنجد أنفسنا أمام عدة أسئلة تطرح نفسها وهي:

أولاً: ما الذي دعا القزويني والسبكي إلى ذلك الحديث المسهب عن فضل السكاكي وقيمة كتابه؟.

لنجد الإجابة بوضوح أنه لم يكن ذلك إلا لمعرفتهما بذلك الفضل وتلك القيمة لما قدمه السكاكي في كتابه.

ثانياً: هل أوقف السكاكي البلاغة عن النمو وأعاق تقدمها نتيجة التعقيد الذي أحدثه بإدخاله ألفاظ الفلاسفة وطرق المناطقة إلى البلاغة؟.

لنجد أن الإجابة بوضوح هي لا، بل إننا نقول رأياً آخر مخالفاً لانقوله من باب المخالفة لأننا سندلل عليه وهو أن كتاب مفتاح العلوم للسكاكي قد أحدث – بعده – نوعاً من النشاط العلمي عند علماء البلاغة لم يكن لولاه ليظهر، وقد رصد د. مطلوب نفسه أثر كتاب المفتاح في فصل مستقل من كتابه عن السكاكي [28]، لكن رصد أثر كتاب المفتاح وحده لايكفي؛ إذ إن ما نجده من كتب البلاغة التي انشغلت بالمفتاح تدل على شيئين هامين:

1 – أن كتاب المفتاح كان سبباً في إثارة عقول البلاغيين لتناوله بالدراسة ووجود ذلك الفيض الهائل من تلك الدراسات ما بين شروح ومختصرات، ومختصر المختصرات، وإيضاحات، وأيضاً عرضه في منظومات.

2 – كتاب المفتاح كان منطلقاً – فقط – لمن تناولوه بالدراسة لتُبنى عليه دراسات بوجهات نظر أخرى أَثْرَت المكتبة العربية في البلاغة وفي الفكر العربي.

ولنأخذ مثالاً على ذلك كتاباً من كتب شروح التلخيص لنجده يُعد مرجعاً أساسياً لكل من يبحث في البلاغة ولنقف عند قول بهاء الدين السبكي عن كتابه "عروس الأفراح" في شرح تلخيص المفتاح، يقول: " *ولقد احتوى هذا*

الشرح بحمد الله تعالى من المباحث التي هي من بنات فكري فلم أسبق إليها .

ومن هبات ذكري فما عثر أحد فيما علمت من أهل هذا الفن عليها. على جملة لا أعقد لها عدداً حتى أفرغ من عدّ النجوم. ولا أعهد لها مدداً سوى الهام الحي القيوم. وكأين فيه من شاهد يردّ على هذا العالم ما يدعيه عن حق ضائع ويثبت له عرفاً يحفظ طيب الثناء بعرف ضائع، ويأمن من الإسقاط *فإني استخرجته بالفكرة، وعدلته بتزكيتي العقل والنقل* عند قاض من التأمل ليست عنده فترة... وأعلم أني مزجت قواعد هذا العلم بقواعد الأصول والعربية. وجعلت نفع هذا الشرح مقسوماً بين طالبي العلوم الثلاثة وأكاد أقول بالسوية. وأضفت إليه من إعراب الآيات الواقعة فيه ماهو محرر، وإن كان رقيق الحاشية. ومن ضبط ألفاظ أحاديثه النبوية ماكانت خباياه من الجامع الأزهر الصحيح في زاوية. وضمنته شيئاً من القواعد المنطقية والمقاعد الكلامية. والحكمة الرياضية أو الطبيعية... *وأعلم أنني لم أضع هذا الشرح حتى استعنت عليه بنحو من ثلثمائة تصنيف وأنه تضمن الخلاصة من مائة تصنيف في هذا العلم منها ما وقفت عليه ومنها ما وقفت على كلام من وقف عليه وقال إنه جمع بين طرفيه، وإني اختصرت فيه أكثر من خمسين مصنفاً في علم البلاغة وقفت عليها* لم أترك منها إلا ماهو خارج عن هذا العلم أو قليل الجدوى فيه أو هو في غاية الوضوح أو شواهد لاحاجة لها لكثرتها، أو ما زاغ البصر عنه أو ما أن تأملته علمت أنه فاسد لا ترتضيه... *وإذا أردت أن تعلم مقدار ما زادته القريحة من المباحث والفوائد فراجع هذه الكتب* "[29].

إذن ماذكره السبكي عن كتابه يدحض ذلك الادعاء بأن السكاكي قد أوقف نمو البلاغة وأعاقها؛ فكتابه كما ذكر:

1) مباحثه من بنات أفكاره ولم يُسبق إليها؛ هذا بالرغم من أن كتابه هو في شرح تلخيص المفتاح، لكن عمله في عروس الأفراح لم يقف عند حد شرح

التلخيص؛ إذ كان المفتاح هو منطلق له أضاف إليه مباحثه الخاصة به التي ابتكرها هو.

2) بالرغم من ذلك الحديث الطويل لبهاء الدين السبكي عن فضل المفتاح إلا أن شرحه له لم يكن تسليماً بكل ماجاء به ولكنه استخرج الفكرة، وعدّل بتزكية العقل والنقل.

3) أن تصديه لشرح المفتاح جعله يتسلح ويستعين بنحو ثلاثمائة تصنيف ومنها أكثر من خمسين مصنفاً في البلاغة مؤكداً ذلك النشاط الفكري والبحثي الذي أثاره المفتاح عند البلاغيين.

4) يؤكد على أن شرحه لتلخيص المفتاح ليس وقوفاً عند حد الشرح ولكن قريحته زادت مقداراً كبيراً من المباحث والفوائد فيه.

وما استخلصناه من النتائج السابقة عند بهاء الدين السبكي في عروس الأفراح تتأكد عند القزويني فيما ذكره في كتابيه التلخيص والإيضاح.

يقول في التلخيص ذاكراً مآخذه على المفتاح بعدما ذكر أنه أعظم ما صنف فيه من الكتب المشهورة نفعاً يقول: "ولكن كان غير مصون عن الحشو والتطويل والتعقيد، قابلاً للاختصار، مفتقراً إلى الإيضاح والتجريد"[30].

يذكر القزويني – بعد ذلك – ما قام به في التلخيص لنر أن الأمر ليس مرتبطاً بالعنوان الذي ساقه من أنه مجرد تلخيص للمفتاح فقط يقول: *"ألفت مختصراً يتضمن مافيه من القواعد، ويشمل على ما يحتاج إليه من الأمثلة* والشواهد، ولم *آل جهداً في تحقيقه وتهذيبه، ورتبته ترتيباً أقرب تناولاً من ترتيبه* ، ولم أبالغ في اختصار لفظه تقريباً لتعاطيه، وطلباً لتسهيل فهمه على طالبيه؛ *وأضفت إلى ذلك فوائد عثرتُ في بعض كتب القوم عليها، وزوائد لم أظفر في كلام أحد بالتصريح بها ولا الإشارة إليها*، وسميته "تلخيص المفتاح"[31].

لقد كانت للقزويني رؤيته الخاصة حينما تناول المفتاح بالتلخيص؛ في التحقيق والتهذيب والترتيب والاختصار والتسهيل، لكنه لم يقف عند ذلك؛ إذ كان له ابتكاره فيما أضافه من فوائد ترجع إلى علماء غيره عثر عليها في بعض كتب القوم، وزوائد من إبداعاته الخاصة لم يصرح بها أحد غيره ولم يشر إليها سواه اختص هو بها.

وحتى عمله في الإيضاح لايؤخذ الأمر فيه بسطحية من أن قصاره هو إيضاح ما لخصه في التلخيص يقول عن العمل فيه "فهذا كتاب في علم البلاغة وتوابعها؛ ترجمته بـ "الإيضاح" وجعلته على ترتيب مختصري الذي سميته تلخيص المفتاح وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له؛ فأوضحت مواضعه المشكلة، وفصلت معانيه المجملة؛ *وعمدت إلى ما خلا عنه المختصر، مما تضمنه "مفتاح العلوم"، وإلى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الإمام عبدالقاهر الجرجاني – رحمه الله – في كتابه: دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، وإلى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما؛* فاستخرجت زبدة ذلك كله، وهذبتها ورتبتها؛ حتى استقر كل شيء منها في محله؛ *وأضفت إلى ذلك ما أدى إليه فكري، ولم أجده لغيري* . فجاء بحمد الله جامعاً لأشتات هذا العلم"[32].

النتائج ذاتها تتأكد وتتحقق فيما عرضنا له من نماذج كتب تناولت المفتاح بالشرح أو التلخيص أو الإيضاح لتثبت ما خالفنا به رأي د. مطلوب، الذي يرى فيه أن السكاكي بنظرته الفلسفية إلى البلاغة وتقسيمها تقسيماً منطقياً يُعد مسئولاً عن وقف نموها وإعاقتها وتؤكد النتائج ما ذهبنا إليه من أن كتاب مفتاح العلوم للسكاكي قد أحدث نوعاً من النشاط العلمي عند علماء البلاغة لم يكن لولاه ليظهر، وأن ذلك النشاط العلمي لم يقف عند حدود تناول المفتاح بالشرح أو التلخيص، أو الإيضاح فقط؛ لكن المفتاح كان هو البداية التي ينطلق منها من يتناول الكتاب مُعْمِلاً فيه عقله ورأيه وتمحيصه، ثم يضيف إليه آراء الآخرين ممن يفضلهم بحسب اتجاهه

ورأيه(*)، ثم يضيف إليه من ابتكاراته وإبداعاته ورؤيته الخاصة مالم يُسبق إليه مما يختص به.

وإن كنا قد أتينا بأقوال أصحاب الشروح والتلخيص والإيضاح بما يثبت رأينا، إلا أن الأمر لايقف عند حد قولهم؛ إذ ربما يكون الكلام الذي يقصر عنه الفعل والتنفيذ، لكن أي مُطَلِع ذي عقل وبصيرة على مفتاح العلوم، ثم على تلك الكتب يمكنه بحق التثبت من ذلك الرأي الذي قلناه.

ونخلص مما سبق إلى الآتي:

- أن عصر السكاكي كان عصراً علمياً مزدهراً انتشر فيه الاعتزال، وشجع فيه السلاطين والأمراء العلوم على اختلافها، وشجعوا العلم والتعلم بدءاً من عامة الناس، وأن السكاكي قد برع في مجموعة من العلوم هي الفقه واللغة والأدب والدراسات القرآنية وعلوم المنطق والفلسفة واللغة الفارسية.
- أن شخصية السكاكي لم تكن شخصية عادية؛ فقد كان يحب إتقان ما يقوم به من عمل، ويحب أن يأتي بالجديد المتفرد الذي يجعله في المكانة العليا البارزة، كما أنه كان يحب الإطراء عليه وتقدير ما يقوم به.
- وقد خلصنا أيضاً إلى صلابة شخصية السكاكي وقوته، وأخذه نفسه بغير لين ولا تخاذل لانتقاله من مجال السكاكة إلى تحصيل العلوم، واستمراره رغم معاناته الشديدة التي استمرت مدة عشرة أعوام، وقد خلصنا من ذلك إلى ما في شخصية السكاكي من قدرة على الاستدلال بربطه بين الوقت وبين حتمية الأثر إذا ما استمر العمل.

- وقد عرضنا للفكر الفلسفي عند السكاكي: ماهيته وأثره؛ وخلصنا إلى أن ماهية الفكر الفلسفي عند السكاكي تظهر في فكرته عن الأدب؛ فهي تلك الفكرة الموسوعية التي ترى التكامل بين العلوم؛ وخلصنا إلى أن الفكر الفلسفي عند السكاكي لم يكن ضيقاً محصوراً في استخدام ألفاظ المناطقة وأفكار الفلاسفة كما حبسه المحدثون في ذلك فلم يلتفتوا إلى رؤية السكاكي الفلسفية للعلوم، وإلى المدى الذي يحتاجه كل علم من الآخر.
- كما ناقشنا الأثر لذلك الفكر الفلسفي في رأي المحدثين القائلين بأن استخدام السكاكي للفلسفة والمنطق في كتاب المفتاح قد أثّر على البلاغة تأثيراً سلبياً حتى أنه قد أعاقها وأوقف نموها.

وخلصنا إلى عدم مسئولية السكاكي عن كل هذه الكتب البلاغية التي تناولت كتابه بالشرح أو الاختصار أو الإيضاح، بل إننا خالفنا رأي المحدثين في قولهم عن أثر السكاكي السلبي على البلاغة؛ حيث رأينا أن السكاكي بكتابه مفتاح العلوم قد أحدث نوعاً من النشاط العلمي عند علماء البلاغة لم يكن لولاه ليظهر، ودللنا على ذلك بأمثلة ممن تناولوا كتاب المفتاح بالشرح أو التلخيص أو الإيضاح، وخلصنا إلى أن كتاب المفتاح للسكاكي كان بالنسبة إليهم منطلقاً فقط يبنون عليه دراستهم التي يغيرون فيها وفق رأيهم وثقافتهم واتجاههم في النظر إلى البلاغة.

وإذ قد انتهينا من ذلك الجزء، فإننا ننتقل إلى الجزء الثاني من البحث لنر كيف تتفق فلسفة السكاكي في رؤيته للبلاغة مع البلاغة الجديدة.

المبحث الثاني
الرؤية الفلسفية عند السكاكي والبلاغة الجديدة

الرؤية الفلسفية وعلم الاستدلال:

في حديث السكاكي عن العلوم التي أتى بها في كتابه، والتي رأى أنه لا غني لكل منها عن الآخر – كما بينا في رؤيته الفلسفية للعلوم – نص على أن تمام علم المعاني يكون بعلمي الحد والاستدلال يقول: "وقد ضمنت كتابي هذا من أنواع الأدب، دون نوع اللغة، ما رأيته لابد منه، وهي عدة أنواع متآخذه. فأودعته علم الصرف بتمامه، وأنه لا يتم إلا بعلم الاشتقاق المتنوع إلى أنواعه الثلاثة، وقد كشفت عنها القناع. وأوردت علم النحو بتمامه وتمامه، بعلمي المعاني والبيان. ولقد قضيت بتوفيق الله منهما الوطر، ولما كان تمام علم المعاني بعلمي الحد والاستدلال، ثم أر بداً من التسمح بهما"[1].

موقف القدماء من رؤية السكاكي:

والمثير للدهشة أنه بالرغم من تلك الكتب الكثيرة التي تناولت كتاب المفتاح بالتلخيص والشرح والإيضاح – بالرغم من ذلك – فإننا لم نجد كتاباً واحداً منهم

يقف عند رأي السكاكي الذي يرى فيه أن تمام علم المعاني يكون بعلمي الحد والاستدلال.

والمثير للدهشة بدرجة أكبر أن قول السكاكي لم يكن رأياً عابراً يقف عند حد ذكره في مقدمة كتابه، إذ إنه قد ختم حديثه عن علم المعاني والبيان بالكلام عن خطته في الكلام عن توفية مقامات الكلام حقها بحسب ما يفي به قوة ذكاء القارئ. ويتوجه بحديثه إلى القارئ مُطْلعاً إياه على ضرورة تمام علم البيان والمعاني بعلم الاستدلال فيقول: "وعندك أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فردة من دوحتها، علمت أن تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها، مما يلزم صاحب علم المعاني والبيان، وحين انتصبنا لإفادته لزمنا أن لا نضن بشيء هو من جملته، وأن نستمد الله التوفيق في تكملته"[2].

وأكمل السكاكي عمله الذي صرح به ونبه إليه وبين وجهة نظره فيه؛ وهو أن علم الاستدلال هو تمام لعلمي البيان والمعاني؛ فأتى بعد فراغه من علم البديع بكلام مُطوّل مفصّل عن علم الاستدلال أو علم خواص تركيب الكلام.

ولاشك أن وقوف البلاغيين القدماء موقفاً صامتاً إزاء ما جاء به السكاكي يثير الحيرة ويثير الفضول أيضاً، خاصة صمت البلاغيين الذين درسوا علم الكلام واستعانوا به، مثل بهاء الدين السبكي في عروس الأفراح؛ إذ لن يكون مبرر صمتهم هو رفض علم الكلام ورفض الاستعانة بألفاظ المناطقة وأفكار الفلاسفة، وهم من أتوا بذلك أيضاً في تناولهم للمفتاح.

أسباب تجاهل القدماء لرأي السكاكي:

والذي يبدو لي أن السبب هو في علم الاستدلال ذاته وارتباطه بالقياس.

فالقياس هو "خطاب متكون من ثلاثة ملفوظات (قضايا) بسيطة، وإحدى هذه القضايا أي النتيجة يُستدل عليها بالقضيتين الأخريين أي المقدمات، وتتضمن كلتا

المقدمتين لفظاً تشترك فيه مع الأخرى، ولفظاً مشتركاً مع النتيجة، فالحجاج 1– قياس، وقياس صحيح.

1 الحيوانات ميته؛

- الناس حيوانات،
- إذن الناس ميتون[3].

والقياس السابق هو قياس صحيح ولا غبار عليه، وليس هو السبب في تجنب البلاغيين للحديث عن الاستدلال؛ لكن السبب هو في القياس المغالطي؛ فهو " 2– قياس، لكنه ليس قياساً صحيحاً؛ فمقدمتاه صادقتان، وكذلك نتيجته، لكن النتيجة لا تنجم عن المقدمتين:

2 الناس حيوانات؛

- الخيل حيوانات؛
- إذن لا إنسان حيوان[4].

إن هذه المغالطة في النتيجة جعلت هذا القياس كاذباً بالرغم من أنه يأخذ الشكل الصحيح في القياس من قيامه على مقدمتين ونتيجة؛ فالقياس المغالطي: "هو حجاج (استدلال) غير صحيح يشبه شكله شكل القياس الصحيح"[5].

وقد قسم أرسطو الأغاليط إلى نوعين: "أغاليط في اللفظ أو القول، وأغاليط معنوية تخرج عن نطاق القول"[6]. لا حاجة لنا – هنا – إلى تفصيل الكلام فيها.

وقد ارتبط القياس المغالطي بالسفطائي وهو الفيلسوف الذي يُعرف منذ أرسطو إلى اليوم بأنه يستخدم "استدلالاً صحيحاً في الظاهر معتلاً في الحقيقة"[7].

ولم يقف الأمر بالسفطائية عند حد استخدام القياس المغالطي، لكنهم قالوا بمجموعة من الأفكار – كلها أفكار صادمة للمجتمع ولمُثله التي ينبغي أن يقوم

عليها – اتخذوها شعاراً لهم، حتى أنه لايرد لفظ سفسطائي إلا وأثيرت هذه الأفكار والشعارات؛ من هذه الأفكار إعلاؤها من شأن الفرد ومصلحته لمنفعته الشخصية تحت شعار "الإنسان مقياس كل شيء"، فتنكرت لكل القيم الموضوعية والمعايير الثابتة سواء في أمور الفكر والاعتقاد أو السلوك والأخلاق، فكان دعاة هذه الحركة يخاطبون الناس قائلين إن الحقيقة ما يراه الفرد حقيقة، والفضيلة ما يبدو له فضيلة، وهكذا بالنسبة لكل الأمور"[8].

ومن شعاراتهم الصادمة التي قالوا بها عدم وجود الحقيقة المطلقة فهم "يعتمدون الظن (Opinion) ويعتبرون الإنسان مقياساً لقول الوجود"[9].

ولقد اعتمد السفسطائيون على اللغة وتقنياتها وأدواتها اعتماداً كبيراً للإقناع بأفكارهم.

فاهتموا "إلى حد كبير ببلاغة القول ومتعلقاتها، حتى إنهم اتخذوها حرفة يلقنونها أبناء الأعيان... إن للقول عندهم قوته وجبروته وفعله"[10].

وقد ترسم أرسطو خطى أستاذه أفلاطون في نقد السفسطائيين، ووضع أرسطو في كتاب له عن السفسطة تصوراً متكاملاً عنهم، في التعريف، وإحصاء المظاهر، والقياس الذي تعتمد عليه، وتبكيت حيلهم، ومراوغاتهم المغالطة[*].

وقد حدد أرسطو مختلف أوجه القياس التي يقوم عليها الاستدلال تبعاً لطبيعة المقدمات التي يأتلف منها فذكر أنها:

- قد تكون هذه المقدمات يقينية، أو بعبارة المناطقة المسلمين مبادئ أولاً، وهو ما يثمر مخاطبة برهانيه.
- وقد تكون المقدِّمات مشهورة يعتقدها أغلب الناس أو جميعهم، ويغلب احتمال صدقها على احتمال كذبها،وفي هذه الحالة تكون أمام مخاطبة جدلية.
- وقد تكون المقدمات محتملة يتساوى فيها إمكان الصدق مع إمكان الكذب، وفي هذه الحالة نكون أمام المخاطبة الخطابية.

- وقد تكون المقدمات تخييلية غايتها الإمتاع وليس الإقناع، وهو ما نجده في المخاطبة الشعرية.

ثم أخيراً تأتلف المخاطبة السفسطائية من مقدمات كاذبة توهم المخاطب بصدقها دون أن تكون كذلك، فالسفسطة كما يبدو ومن خلال هذا التصنيف لأنواع المخاطبات تقع في أدنى السلم"[11].

وقد تحدث أرسطو عن قصد السفسطائي في مخاطباته التي تقوم على الخداع الذي يؤدي إلى التبكيت فجمعها في خمسة أمور[12]:

1 –إلزام المخاطب أمراً شنيعاً معلوماً كذبه.

2 –إيقاع المخاطب في الشك.

3 –جعل المخاطب يدلي بكلام مستحيل المفهوم.

4 –دفع المخاطب إلى الإتيان بالهذر من القول.

5 –تبكيت المخاطب.

وقد ذكر أرسطو عن القياسات المُبَكِّتة أنها قياسات يظّن بها أنها تبكيتات حقيقية "وهي تضليلات لا تبكيتات"[13].

لقد ارتبطت السفسطائية بكل ما هو سلبي ومرذول ومرفوض وأصبحت "عنواناً لكل أشكال التفكير المعوَج والمخادع، وستصبح صورة السفسطائي تركيباً بين كل الأوصاف القدحية، فهو ذلك الدجال المخادع الذي يلوك الكلام ويتحايل بلسانه لِيُمرِّر على المخاطبين فكره الباطل، واستدلالة المغالطة"[14].

وفي رأيي أن ما عرضناه من القياس الذي يقوم على المغالطة، وارتباط السفسطائية بأفكارها ومبادئها المرفوضة من المجتمع؛ والتي تقوم على القياس المغالطي وارتباط السفسطائيين بمقدرتهم البلاغية والقولية وبراعتهم في ذلك – في رأيي – أن ذلك هو الذي أدى إلى صمت البلاغيين التام عند من تناولوا كتاب المفتاح أو حتى غيرهم من البلاغيين، فلم يتعرضوا لرأيه في أن علم الاستدلال من

مكملات علم المعاني ولم يناقشوا رأيه سلباً أو إيجاباً وفضّلوا التجاهل التام، تفادياً للجلبة التي – حتماً – كان سيثيرها ذلك الرأي.

مفهوم الاستدلال عند السكاكي:

في عرض السكاكي لرأيه عن ارتباط علمي المعاني والبيان بالاستدلال يقول أن: "من أتقن أصلاً واحداً من علم البيان، كأصل التشبيه أو الكناية أو الاستعارة، ووقف على كيفية مساقة لتحصيل المطلوب به، أطلعه ذلك على كيفية نظم الدليل"[15].

ولا شك أن السكاكي واعٍ تماماً في استخدامه كلمة "دليل" التي يوظفها في مفهوم الاستدلال في البلاغة ليقول عنه أنه "هو اكتساب وإثبات الخبر للمبتدأ، أو نفيه عنه، بوساطة تركيب جمل"[16].

ثم يبين السكاكي الحالات التي يكون عليها جملتي الاستدلال ووضعهما في الجمل الخبرية فيذكر أن: "جملتي الاستدلال: تارة تكونان خبريتين معاً، وتارة تكونان شرطيتين معاً، وتارة تختلفان خبراً وشرطاً"[17].

وبناء على تقسيمه لهذه الحالات يفرد لكل حالة منهم باباً ليبين كيف يكون الاستدلال فيكون الباب الأول: في الاستدلال الذي جملتاه خبريتان.

والباب الثاني: في الاستدلال الذي جملتاه شرطيتان.

والباب الثالث: الاستدلال الذي إحدى جملتيه شرطية والأخرى خبرية.

ويأخذ الباب الأول الحيز الأكبر في حديث السكاكي؛ حيث يعتبره ركيزة يرجع إليها القارئ هو والباب الثاني لاختلاف حالة الجمل ما بين الخبرية والشرطية، أما الباب الثالث، فقد ذكر فقط أقسام هذا الباب محيلاً القارئ إلى اعتباره التركيبيات بنفسه وفق البابين السابقين، حيث يتكون منهما.

وبالرغم من أن السكاكي يعتمد – في الاستدلال – على القياس الذي يتكون من المقدمة الأولى والمقدمة الثانية ونتيجة، إلا أنه لا يذكر ذلك في بيان تركيب الجملتين في الاستدلال وإنما يعرض لذلك من خلال المبتدأ والخبر فيذكر أنه يرجع

تركيب الجملتين في الاستدلال إلى ثلاثة أجزاء "من بينهما يتكرر واحد؛ وهي: مبتدأ المطلوب، وخبر المطلوب، والثالث المتكرر... وهو يسمى الجملة التي فيها مبتدأ المطلوب: السابقة تسمية لها بحكم المبتدأ أو بحكم ورودها سابقة على صاحبتها في وضع الدليل في الغالب... والتي منها خبر المطلوب: اللاحقة، تسمية لها بحكم الخبر وبحكم ورودها لاحقة للأولى في وضع الدليل" [18]. فقد عمد السكاكي – هنا – إلى عدم استخدام لفظ القياس وما يتبعه قاصداً تقوية الرابطة بين الاستدلال وبين علمي المعاني والبيان؛ حيث يكثر في بقية الكتاب استخدامه لألفاظ المناطقة دون حرج.

وقد سعى السكاكي إلى إحكام حالات تركيب الجملتين في الاستدلال بتحديده الأوضاع التي تأتي عليها؛ فذكر أنها تأتي على أربع صور[19].، ولا تزيد عن ذلك

أحداها: أن يتكرر الثالث خبراً لمبتدأ المطلوب، ومبتدأ لخبره.

وثانيتها: أن يتكرر خبراً لجزئي المطلوب.

وثالثتها: أن يتكرر المبتدأ لهما.

ورابعتها: أن يتكرر مبتدأ المبتدأ المطلوب، وخبراً لخبره.

ثم قسم السكاكي الجمل المستعملة في الاستدلال وذكر لها أربعة أقسام قال إنها لا تخرج عنها فهي: "إما أن تكون مثبتة، أو لا تكون، وهي: المنفية؛ وكل واحدة منهما: إما أن تكون كلية، كقولنا في الإثبات: كل اسم كلمة، وفي النفي: لا فعل بحرف، أو لا تكون، وهي البعضية، كقولنا في الإثبات: بعض الكلم اسم، وفي النفي: لا كل كلمة اسم، أو بعض الكلم ليس باسم، وتسمى هذه الجمل مستعملات، لاستعمالها في الاستدلال وبناء الدلائل عليها"[20].

ثم جعل السكاكي لهذه الصور الأربع أضرباً تختلف من صورة لأخرى تحكمها الفكرة التي تحدث عنها في مفهومه للاستدلال؛ وهو اكتساب إثبات الخبر للمبتدأ، أو نفيه عنه وذلك في حالة الكلية أو البعضية، وقد وضع مثالاً في كل الة يتكون

من جملتين، وهما السابقة (أي مبتدأ المطلوب)، واللاحقة (أي خبر المطلوب)، ويأتي بهما في حالتي الإثبات أو النفي، وحالتي الكلية أو البعضية؛ ليبين في كل حالة تركيباً مختلفاً من تراكيب الجمل يلزم منه نتيجة في ذلك الضرب، ولكثرة التفريعات التي ذكرها السكاكي سنقوم بعمل رسم توضيحي لما ذكره عن تركيب الجملتين في الاستدلال الذي جملتاه خبريتان.

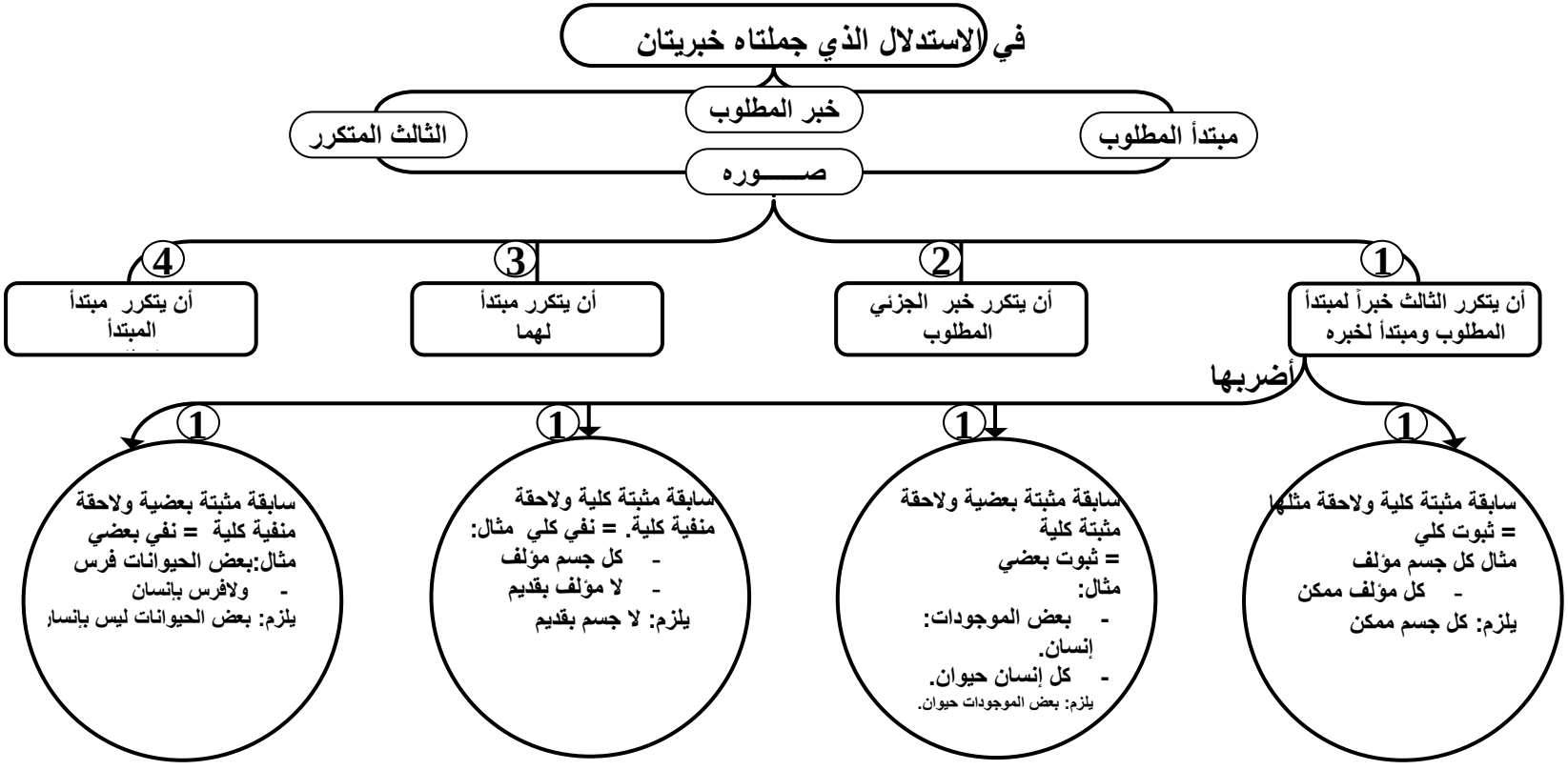
في الاستدلال الذي جملتاه خبريتان
خبر المطلوب
مبتدأ المطلوب
الثالث المتكرر
صـــــوره
1
أن يتكرر الثالث خبراً لمبتدأ المطلوب ومبتدأ لخبره
2
أن يتكرر خبر الجزئي المطلوب
3
أن يتكرر مبتدأ لهما
4
أن يتكرر مبتدأ المبتدأ
أضربها
1
سابقة مثبتة كلية ولاحقة مثلها = ثبوت كلي
مثال كل جسم مؤلف
- كل مؤلف ممكن
يلزم: كل جسم ممكن
1
سابقة مثبتة بعضية ولاحقة مثبتة كلية = ثبوت بعضي
مثال:
- بعض الموجودات: إنسان.
- كل إنسان حيوان.
يلزم: بعض الموجودات حيوان.
1
سابقة مثبتة كلية ولاحقة منفية كلية. = نفي كلي مثال:
- كل جسم مؤلف
- لا مؤلف بقديم
يلزم: لا جسم بقديم
1
سابقة مثبتة بعضية ولاحقة منفية كلية = نفي بعضي
مثال:بعض الحيوانات فرس
- ولافرس بإنسان
يلزم: بعض الحيوانات ليس بإنسان

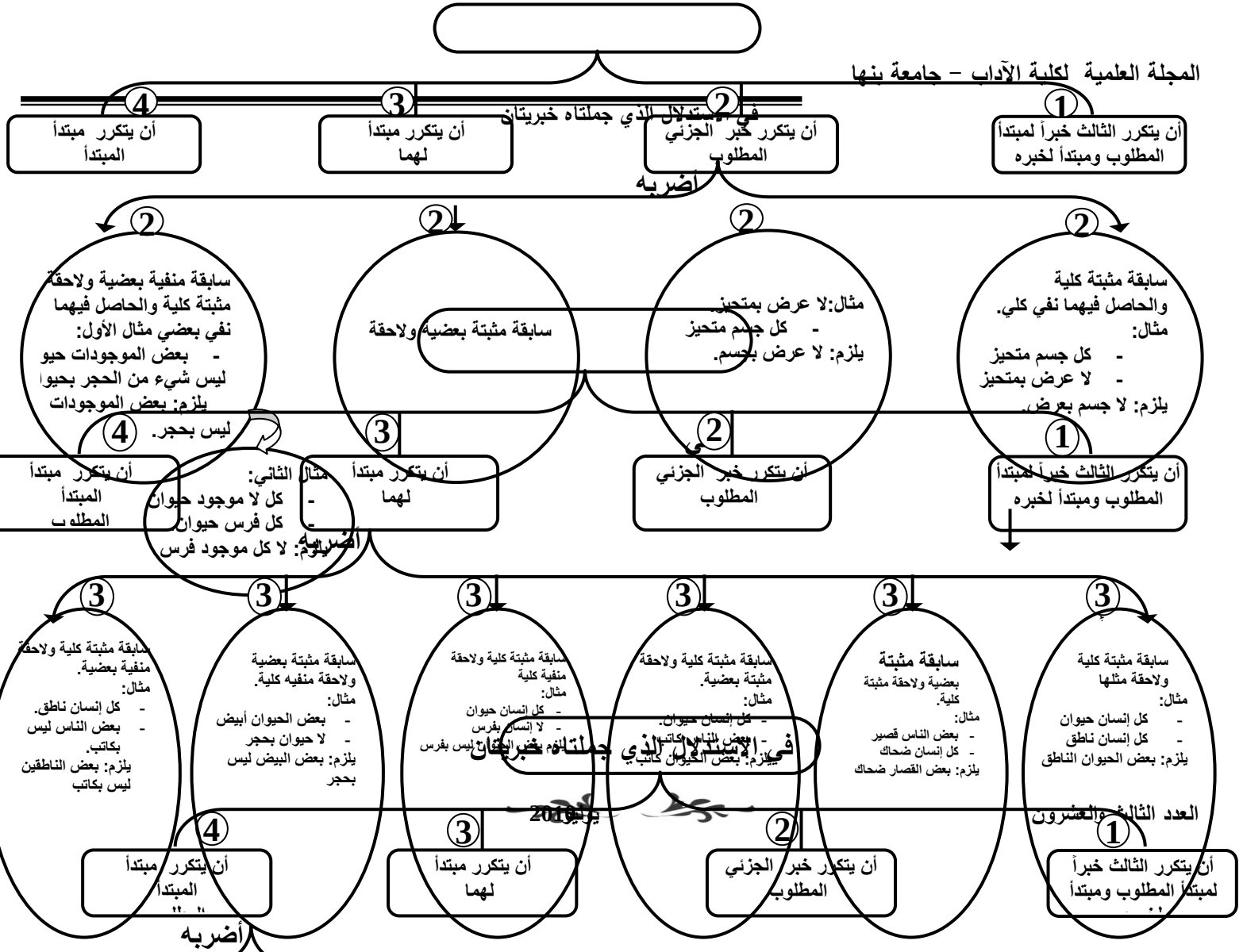

أن يتكرر الثالث خبراً لمبتدأ المطلوب ومبتدأ لخبره
أن يتكرر خبر الجزئي المطلوب
أن يتكرر مبتدأ لهما
أن يتكرر مبتدأ المبتدأ
أضربه
سابقة مثبتة كلية والحاصل فيهما نفي كلي. مثال: - كل جسم متحيز - لا عرض بمتحيز يلزم: لا جسم بعرض.
مثال: لا عرض بمتحيز. - كل جسم متحيز يلزم: لا عرض بجسم.
سابقة مثبتة بعضية ولاحقة
سابقة منفية بعضية ولاحقة مثبتة كلية والحاصل فيهما نفي بعضي مثال الأول: - بعض الموجودات حيو ليس شيء من الحجر بحيوا يلزم: بعض الموجودات ليس بحجر.
مثال الثاني: - كل لا موجود حيوان - كل فرس حيوان يلزم: لا كل موجود فرس
سابقة مثبتة كلية ولاحقة مثلها مثال: - كل إنسان حيوان - كل إنسان ناطق يلزم: بعض الحيوان الناطق
سابقة مثبتة بعضية ولاحقة مثبتة كلية. مثال: - بعض الناس قصير - كل إنسان ضحاك يلزم: بعض القصار ضحاك
سابقة مثبتة كلية ولاحقة مثبتة بعضية. مثال: - كل إنسان حيوان. - بعض الناس كاتب يلزم: بعض الحيوان كاتب
سابقة مثبتة كلية ولاحقة منفية كلية مثال: - كل إنسان حيوان - لا إنسان بفرس يلزم: بعض الحيوان ليس بفرس
سابقة مثبتة بعضية ولاحقة منفيه كلية. مثال: - بعض الحيوان أبيض - لا حيوان بحجر يلزم: بعض البيض ليس بحجر
سابقة مثبتة كلية ولاحقة منفية بعضية. مثال: - كل إنسان ناطق. - بعض الناس ليس بكاتب. يلزم: بعض الناطقين ليس بكاتب
في الاستدلال الذي جملتاه خبريتان

وبعد عرض هذه الصور وأضربها المختلفة يعطي السكاكي خلاصة لها يجمعها في عدة حالات تبين متى يمكن اكتساب الإثبات للخبر مع المبتدأ أو نفيه نختصرها في قوله إن "المبتدأ متى لم يكن معلوماً من نفسه مجامعته للخبر فيثبت، أو مفارقته له فينفى بطلب ثالث بينهما يجمعهما أو يفرقهما... ويظهر من هذا: أن الدليل يمتنع تركيبه من سابقة ولاحقة بعضيتين لاحتمال عدم الاتحاد، ومن متفقتين في درجة النفي"[21].

ويسير السكاكي في عرضه لعلم الاستدلال على المنهج ذاته؛ فيتحدث في الفصل الأول عن الحكمين النقيضين حيث تختلف الجملتان بالنفي والإثبات، اختلافاً يلزم منه لذاته كون إحداهما صادقة، والأخرى كاذبة مثل: هذا حيوان، هذا ليس بحيوان؛ فيتحدث عن شروط التناقض، وأصناف الجمل وأحوالها، وطبقاتها وما فيها من الوجوب والإمكان العام، أو الضرورة واللا ضرورة وما في ذلك من إطلاق الجمل وتقييدها وبالطريقة ذاتها يتحدث في الفصل الثاني عن "العكس"، وهو تصيير خبر المبتدأ مبتدأ، والمبتدأ خبراً، مع تبقيه الإثبات أو النفي بحاله، والصدق والكذب بحاله، دون الكم وبانتهاء السكاكي من الباب الأول يكون قد عرض لخواص تراكيب الاستدلال ثم يعرض السكاكي في الباب الثاني للاستدلال الذي جملتاه شرطيتان فيتحدث عن الأحوال في الشرط: من الإثبات والنفي، والتقييد بالكل والبعض، والإهمال ومن التناقض والانعكاس، أما الباب الثالث وهو بعنوان الاستدلال الذي إحدى جملتيه شرطية والأخرى خبرية، فيذكر فيه السكاكي أربعة أقسام لهذا الباب قد أتى ذكرها في البابين الأول والثاني فيكتفي بذلك ويطلب من القارئ اعتبار التركيبات بنفسه.

أما الباب الأخير وهو الرابع بعنوان القياسات ومجاريها وأحوالها؛ وهو يتحدث عن أنواع القياسات المركبة أو الاستثنائية، وقياس الخلف، وقياس الدور ثم يتحدث عن أمور شبيهة بالقياس منها: التقسيم والسبر، والاستقراء، والتمثيل ثم يتحدث عن الدليل وهو ما يربط فيه بين الاستدلال وبين علمي المعاني والاستدلال – وسوف نعرض لذلك بالتفصيل – ثم يختم كلامه في هذا العلم بفصل عن وجه الإعجاز في الاستدلال.

العلاقة بين علم الاستدلال وعلمي المعاني والبيان عند السكاكي:

بعد أن عض السكاكي لعلم الاستدلال في الأبواب الأربعة – سالفة الذكر – يذكر في فصل الدليل أن ما عرضه كان كثيراً وطويلاً كي يصل إلى مبتغاه، ويصل القارئ معه فيقول: "وهذا أوان أن نثني عنان القلم إلى تحقيق ماعساك تنتظر فقد افتتحنا الكلام في هذه التكملة أن نحققه، أو عل صبرك قد عيل له، وهو صاحب التشبيه، أو الكناية، أو الاستعارة، كيف يسلك في شأن متوخاة مسلك صاحب الاستدلال، وأنىّ يعشو أحدهما إلى نار الآخر، والجد وتحقيق المرام مظنة هذا، والهزل وتلفيق الكلام مظنة هذا"[22].

وبعد أن يؤكد السكاكي على وجاهة رأيه وجديته في سلوك صاحب التشبيه أو الكناية، أو الاستعارة مسلك صاحب الدليل يأتي بخلاصة ما عرضه في الأبواب الأربعة لصور الاستدلال ليجمله في أمرين – فقط – هما الإثبات والنفي؛ ثم يبين كيف يرتبطان بالتشبيه أو الكناية أو الاستعارة وسنورد رأيه كاملاً في ذلك بقول مجملاً نتائج ما ذكره في علم الاستدلال "أليس قد تُلِىّ عليك: أن صور الاستدلال أربع لا مزيد عليهن، وأن الأولى هي التي تستبد بالنفس، وأن ما عداها تستمد منها بالارتداد إليها، فقل لي إن كانت التلاوة أفادت شيئاً؟. هل هو غير المصير إلى ضروب أربعة؟ بل إلى اثنين؟

محصولهما إذا أنت وفيت النظر إلى المطلوب حقه، إلزام شيء يستلزم شيئاً، فيتوصل بذاك إلى الإثبات. أو يعاند شيئاً فيتوصل بذلك إلى النفي. ما أظنك، إن صَدَق الظنُّ، يجول في ضميرك حائل سواه.

ثم إذا كان حاصل الاستدلال، عند رفع الحجب، هو ما أنت تشاهد بنور البصيرة، فوصفك إذا شبهت قائلاً: خدها وردة، تصنع شيئاً سوى أن تلزم الخد ما تعرفه يستلزم الحمرة الصافية، فيتوصل بذلك إلى وصف الخد بها.

أو هل إذا كنيت قائلاً: فلان جّم الرماد، تثبت شيئاً غير أن تثبت لفلان كثرة الرماد المستتبعة للقرى، توصلاً بذلك إلى أتصاف فلان بالمضيافية عند سامعك؟.

أو هل إذا استعرت قائلاً في الحمام أسد، تريد أن تبرز من هو في الحمام في معرض من سداه ولحمته شدة البطش، وجراءة المقدم مع كمال الهيئة، فاعلاً ذلك ليتسم فلان بهاتيك السمات؟.

أو هل تسلك إذا رمت سلب ما تقدم، فقلت: خدها باذنجانة سوداء، أو قلت: قدر فلان بيضاء، أو قلت: في الحمام فراشة، مسلكاً غير إلزام المعاند بدل المستلزم، ليتخذ ذريعة إلى السلب هنالك؟.

أرأيت والحال هذا أن ألقى إليك زمام الحكم أنجدك * لا تستحي أن تحكم بغير ما حكمنا نحن؟ أو تهجس في ضميرك أنّى يعشو صاحب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة إلى نار المستدل؟ ما أبعد التمييز بمجرده أن يسوغه العقل الكامل، والله المستعان"[23].

فالخلاصة إذن في العلاقة بين علم الاستدلال وبين علمي المعاني والبيان عند السكاكي هي في إلزام شيء يستلزم شيئاً، فيتوصل بذلك إلى

الإثبات، أو معاندة شيء فيتوصل بذلك إلى النفي؛ وقد وضّح السكاكي ذلك في مثال لكل من التشبيه، والكناية، والاستعارة.

ومن خلال ماجاء عن علم الاستدلال عند السكاكي يمكننا أن نلحظ مايلي:

1) عّرف السكاكي علم الاستدلال بقوله هو اكتساب إثبات الخبر للمبتدأ، أو نفيه عنه بوساطة تركيب جمل، وقد عمد السكاكي – في رأيي – إلى استخدام كلمة "اكتساب" ليعطي الكلمة صفة لمهارة اكتساب الإثبات، أو بياناً لكيفية إثبات الخبر للمبتدأ ليبعدها عن حَرْفِيّة القياس، ويؤكد ذلك ما ذكره في الباب الرابع من علم الاستدلال وهو باب القياسات ومجاريها وأحوالها؛ فقد عمد السكاكي إلى التأكيد على عدم رغبته في ذكر القياس لأنه في رأيه قد أنجز ما أراد في الأبواب السابقة لولا أنه يقتفي أثر السابقين يقول: "وإذ قد أنجز الموعود في الأبواب الثلاثة من فن الاستدلال، فلولا أن للأصحاب فصولاً سواها يتكلمون فيها: كفصل القياسات المركبة وفصل القياسات الاستثنائية، وفصل قياس الخلف، وفصل عكس القياس، وفصل قياس الدور، وغير ذلك، لختمنا الكلام في هذا الفن"[24].

2) اتخذ السكاكي من المنطق والنحو معيناً أساسياً له في تقسيم الحالات التركيبية المختلفة للجمل الخبرية وعرضها، ليصل إلى بيان حالة الاستدلال في الإثبات والنفي والشرط في حالة الكلية والبعضية، وقد دعا ذلك د. شكري المبخوت لإهمال ما جاء في كلام السكاكي من حديثه المتكرر عن الاستلزام واللزوم، والمستلزم وتركيزه فقط على اعتماد السكاكي على جملة المبتدأ والخبر، فرأى في كلامه عن الاستدلال أنه يُدرج في مدارج النحو "بجعله تمام علم المعاني الذي هو تمام علم النحو"[25].

وخطورة رأي د. المبخوت أنه يبتر عمل السكاكي، ويبعده عن هدفه؛ فقد كان البحث عند السكاكي في تراكيب الجمل الخبرية وسيلة لاستقصاء حالاتها المختلفة في الإثبات والنفي، والبعضية والكلية، والشرطية ليدلل على ارتباط علمي المعاني والبيان بعلم الاستدلال، ولم يكن هدفه الوقوف عند حالاتها النحوية.

3) بالرغم من المجهود الكبير الذي قام به السكاكي الاستقصاء وضع الجمل في حالة إثبات الخبر للمبتدأ أو نفيه عنه إلا أنه يعلم أن الاستقصاء النحوي هو ما يمكنه – فقط – أن يحدده ويقسمه عن طريق التوافيق والتباديل ولكن تبقى حالات تركيبة أخرى للجمل تخرج عن ذلك الحصر وفق الاستخدام، وقد نبه لذلك في نهاية حديثة بقوله: "هذا وكم ترى المستدل يتفنن فيسلك: تارة طريق التصريح فيتمم الدلالة، وأخرى طريق الكناية، إذا مهر، مثل ما تقول للخصم: إن صدق ما قلت استلزم كذا واللازم متنف"[26].

الجرجاني يسبق السكاكي في رؤيته:

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل يعد رأي السكاكي – في أصله – رأياً جديداً لم يُسبق إليه؟ والإجابة هي لها. فقد عرض الجرجاني للفكرة ذاتها في حديثه عن الكناية، والاستعارة، والتشبيه التمثيلي؛ حيث يؤكد على أن المزية في ذلك إثبات المعنى وجعله آكد وأشد وهو يجمل ذلك بقوله: "أعلم أن سبيلك أولاً أن تعلم أن ليست المزية التي تثبتها لهذه الأجناس على الكلام المتروك على ظاهره والمبالغة التي تدعى لها في أنفس المعاني التي يقصد المتكلم إليها بخبره، ولكنها في طريق إثباته لها وتقريره إياها"[27].

ويبين الجرجاني في عين الشواهد التي تخيرها السكاكي – بعده – مقصده في ميزة إثبات المعنى في الكناية فيقول: "ليس المعنى إذا قلنا إن

الكناية أبلغ من التصريح أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وآكد وأشد فليست المزية في قولهم: جَمُّ الرماد أنه دل على قرى أكثر، بل أنك أثبت له القرى الكثير من وجه هو أبلغ وأوجبته إيجاباً هو أشد، وأدعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق... فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم – إذا رجع إلى نفسه – أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في وجودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذَجاً غُفْلاً، وذلك أنك لا تدِّعى شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لايُشَك فيه، ولا يظن بالمخبر التجوّز والغلط"[28].

ويتأكد ذات المعنى في الاستعارة أيضاً حيث يقول الجرجاني "وكذلك ليست المزية التي تراها لقولك: "رأيت أسداً" على قولك "رأيت رجلاً لا يتميز عن الأسد في شجاعته وجرأته" أنك قد أفدت بالأول زيادة في مساواته الأسد، بل إنك أفدت تأكيداً وتشديداً وقوة في إثباتك له هذه المساواة في تقريرك لها، فليس تأثير الاستعارة إذن في ذات المعنى وحقيقته؛ بل في إيجابه والحكم به... فسبب ما ترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت: رأيت أسداً كنت قد تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة، حتى جعلتها كالشيء الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوده. وذلك أنه إذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها، وإذا صرحت بالتشبيه فقلت: رأيت رجلاً كالأسد كنت قد أثبتها إثبات الشيء يترجح بين أن يكون وبين أن لايكون، ولم يكن من حديث الوجوب في شيء"[29].

ويجمع الجرجاني بين مزية إثبات المعنى في الاستعارة والتمثيل من جهة إثبات المعنى دون المعنى نفسه فيقول: "فإنك إذا قلت: أراك تقدم رِجْلاً وتؤخر أخرى، فأوجبت له الصورة التي يقطع معها بالتحير والتردد كان أبلغ لا محالة من أن تجرى على الظاهر، فنقول: قد جعلت تتردد في أمرك فأنت كمن يقول: أخرج ولا أخرج، فيقدم رجلاً ويؤخر أخرى"[30].

الفرق بين الجرجاني والسكاكي:

الفرق بين الجرجاني وبين السكاكي في تناولهما لارتباط المعنى بالإثبات في الاستعارة والتشبيه والكناية هو فرق ما بين الأديب والصانع، أو البلاغي والعالم ولكل منهما ميزته التي يختص بها؛ فقد عرض الجرجاني رأيه شارحاً له – فيما ذكرناه – أن مزية الكلام لا تكون في الإثبات لكنها في كيفية الإثبات والتقرير التي تتأتي من التعبير بالكناية أو الاستعارة أو التشبيه دون بدائل لها وقد برع الأديب البليغ الجرجاني – كعادته – في عرض تلك الكيفية.

أما السكاكي فقد أنطلق بهذه الفكرة قدماً، حتى استوت عنده عِلْماً؛ ليتعدى مَزّية كيفية الإثبات في التشبيه والاستعارة والكناية إلى ارتباط علمي المعاني والبيان بعلم الاستدلال في ذلك التقسيم العقلي المنظم الذي عرضه، والذي لا نستطيع إلا أن نرد للسكاكي اعتباره في الإقرار بتفرده بين البلاغيين بذلك التناول العلمي على هذا النحو، ولأن السكاكي صانع، عالم، مهتم بالقاعدة والإلمام بأدق تفاصيل جزئياتها فكان من الطبيعي أن يُغلّب لغة العقل على لغة الأدب، وكان من الطبيعي أن يسعفه المنطق والفلسفة بما لهما من قدرة على التفكير والتقسيم والإحكام، ولاشك أن السكاكي قد استغرق أحياناً – كثيرة – في التقسيمات والتفريعات مستخدماً ألفاظ المناطقة استغراقاً أدى إلى استغلاق الفهم، لكن ذلك لاينقص من قيمة ما قدمه السكاكي، بل على العكس

لقد كان فِكْر السكاكي وما انماز به في رؤيته للعلوم – وللعلاقة التكاملية بينها، كما كان لفكرة الفلسفي الذي اكتسب القدرة على الرؤية، ولعلمه المنطقي الذي مكنه من القدرة على التحديد والتقسيم – كان لكل ذلك الفضل في بناء عقل السكاكي وفكرة الفلسفي الذي أنتج ذلك الطرح المتميز للبلاغة في كتابه مفتاح العلوم وأوجد ذلك السبق لما قاله عن العلاقة بين علم الاستدلال وعلمي المعاني والبيان.

البلاغة الجديدة والمباحث الحجاجية:

لم يكن أحد من البلاغيين القدماء – الذين وقفوا موقفاً صامتاً إزاء رأي السكاكي في ارتباط علمي المعاني والبيان بالاستدلال، ولا مِن مَن البلاغيين المحدثين الذين عابوا على السكاكي استخدام ألفاظ المناطقة والفلاسفة وأفكارهم، ورأوا أنه قد أوقف البلاغة وأعاق نموها – لم يكن أحد منهم – يعلم ما سيؤول إليه الأمر في السنوات القليلة الماضية عند البلاغيين المحدثين؛ فقد شهدت الدراسات البلاغية "منذ ستينات هذا القرن تقريباً نهضة قوية بها استعادت مكانتها في عالم المعرفة بعد ركود دام فترة طويلة، غير أن هذه الدراسات وهي تحقق الاستفاقة، وتستعيد تلك المنزلة قد ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالمباحث الحجاجية والتداولية، ولكن هذه الحقيقة لا تعني أن الاهتمام بالبلاغة والحجاج انحصر في الميدان اللساني التداولي دون غيره، بل شكّل هذا المبحث اهتمام ميادين معرفية أخرى كالمنطق والفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع"[31].

ولقد شهد العصر الحديث تركيزاً واضحاً على إعادة النظر في الحجاج والجدل والاستدلال والبرهنة والدليل، وحتى السفسطة؛ تلك المرتكزات التي ارتكزت عليها الخطابة في العصور الأولى القديمة عند اليونان، واسترشد بها العرب في عصور لاحقة.

مفهوم الحجاج:

وفي العصر الحديث اتسع مفهوم الحجاج وتبلور ليتفق في المفهوم العام ويختلف في تفاصيل الكيفية حسب التخصص والرؤية. وقد تمثل ذلك في وجهات نظر مختلفة نجد أوضحها عند مجموعات ديكرو، وميار، وجرايس، وبيرلمان فقد رفض أزوالد ديكرو وجون – كلود أنسكومبر "التصور القائم على الفصل بين الدلالة وموضوعها معنى الجملة، والتداولية وموضوعها استعمال الجملة في المقام، من جهة والسعي إلى سبر كل ماله صلة داخل بنية اللغة بالاستعمال البلاغي المحتمل من جهة أخرى"[32].

ومن ثم كانت نظرية السلالم الحجاجية التي تنطلق من "إقرار التلازم في عمل المحاجّة بين القول الحجة ونتيجة [33]" عن طريق الخصائص الحجاجية الموجودة في بنية اللغة.

أما ميشال ميار فقد تحدث عن البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة؛ ونظريته تقوم على الانطلاق من الأبعاد الفلسفية وارتباطها باللغة والأدب والعلوم الطبيعية وغيرها، وهو يبحث في الفلسفة عن وظيفتها الأولى التي يحددها في المساءلة. واعتماداً على ذلك "يعود ميار إلى الفلسفة اليونانية ليبحث فيها عن نشأة السؤال الذي اقترن بميلاد الفلسفة، والنظر في أبعاده وخصوصياته"[34].

وترتبط آراء ميار في المساءلة بالبلاغة والحجاج عن طريق ارتباط السؤال بدوره في الكلام ودلالته فـ "لما كان الكلام إثارة للسؤال أو استدعاء له لزم أن يتولد عن ذلك نقاش يوّلد بدوره حجاجاً، فالحجاج لديه محايث لاستعمال الكلام؛ لأن الكلام يتضمن بالقوة سؤالاً يستمد منه دلالته، والحجاج لا يتصل

بضرب من الخطابات مخصوص، بل يشمل كل ضروب الخطاب الشفوي والمكتوب الأدبي وغيره"[35].

أمّا جرايس فهو ينشغل بالمقابلة بين "حجاج" و "استدلال" "على أساس أن الاستدلال لايمكن أن يضع في اعتباره "المقام المحسوس" للفاعل القائم بالبرهنة وللجمهور الذي يتوجه إليه وذلك ليتهيأ للشكْلنه على نحو أيسر، في حين أن الحجاج (والذي يُسَمِّيه "منطقاً طبيعياً) يضع في اعتباره السِّياق وفواعل التواصل، وهو بذلك يحتوي على عمليات أخرى تتجاوز الاستدلال الخالص"[36].

لقد اهتمت أعمال (جرايس، وبوريل، وميبفيل) بالنظريات ذات المنحى الحجاجي المنطقي ووضح ذلك في التركيز "على الوسائل والآليات والمفاهيم والعلاقات التي تُمكنّ المتحاجين من بناء خطاب محكم وفعال، قادر على التأثير والإقناع، بدءاً من المفردة، فالجملة، فالعلاقات، فالصياغة القائمة على الاختيار والتنظيم والتركيز والتبئير، فالتصوير فالترميز، لاسيما المستند إلى الخاصيات (الاستعارية) التي هي العلاقة المميزة والموجه الأكبر لمسار الخطاب، وردود الفعل أو نوع الاستجابة التي تأملها من المخاطب. وهو استناد يؤكد أن المتحاجج لا يقف عند مستوى التواصلِ، وإنما إلى خلق استجابة خاصة لدى المخاطب، تتوافق جزئياً أو كلياً مع ما سبق أن تم التخطيط له من أهداف وما تم تشكيله من عبارات وصور مدروسة بعناية فائقة"[37].

أما النظرية الحجاجية التي تهتم بالحجاج من وجهة النظر البلاغية الأكبر فتتمثل فيما جاء به (بيرلمان وتيتكاه) في كتابهما "مصنف في الحجاج" فموضوع الحجاج عندهما هو "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّى

بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[38].

إذن:

تقنيات خطاب ⟵ (تؤدي) إذعان الأذهان وتسليمها.

هذا هو أساس نظرية (برلمان وتيتكاه) فالفكرة الأساسية هي فكرة الإقناع، البرهنة الجدل، الحجاج، و تستخدم في ذلك كل تقنيات الخطاب ليكون الإذعان، والتسليم.

وليس مجال البحث الخوض في جدل تقسيمات تقنيات الخطاب في الخطابة والفلسفة والمنطق والفروق بينهم؛ إذ هي موضوع كل باحث في الحجاج[*] على اختلاف وجهة بحثه.

ولذلك فقد حاولت الإلمام – قدر الإمكان – بتقنيات الخطاب عند الكاتبين في الرسم التوضيحي التالي:

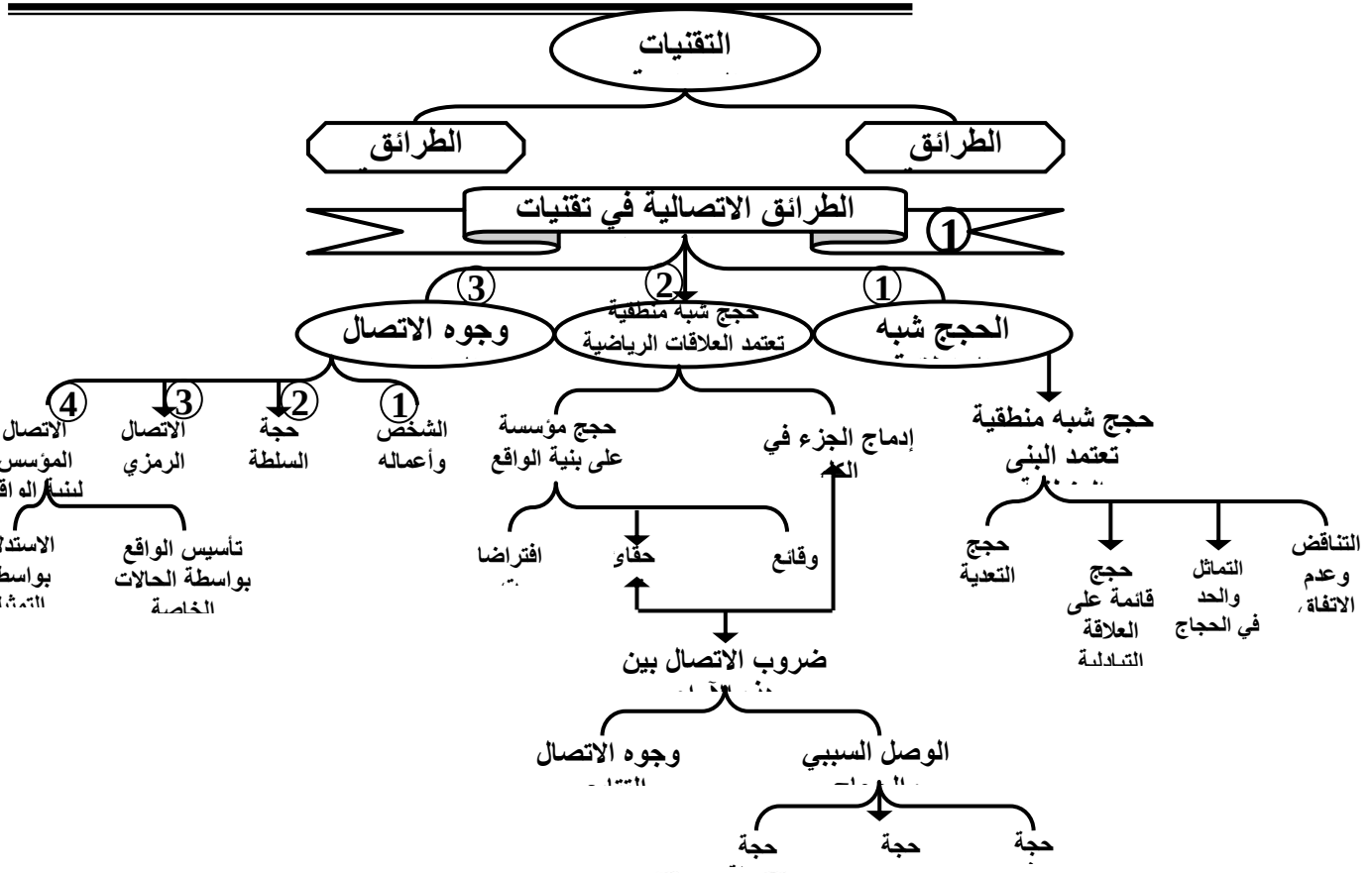

التقنيات
الطرائق
الطرائق
الطرائق الاتصالية في تقنيات
1
1
2
3
الحجج شبه
حجج شبه منطقية
تعتمد العلاقات الرياضية
وجوه الاتصال
حجج شبه منطقية
تعتمد البنى
إدماج الجزء في
حجج مؤسسة
على بنية الواقع
1
2
3
4
الشخص
وأعماله
حجة
السلطة
الاتصال
الرمزي
الاتصال
المؤسس
لبنية الواقع
التناقض
وعدم
التماثل
والحد
في الحجاج
حجج
قائمة على
العلاقة
حجج
التعدية
وقائع
حقاء
افتراضا
تأسيس الواقع
بواسطة الحالات
الاستدلال
بواسطة
ضروب الاتصال بين
الوصل السببي
وجوه الاتصال
حجة
حجة
حجة

الطرائق الانفصالية في تقنيات الخطاب الحجاجي 2

= الفصل بين المفاهيم

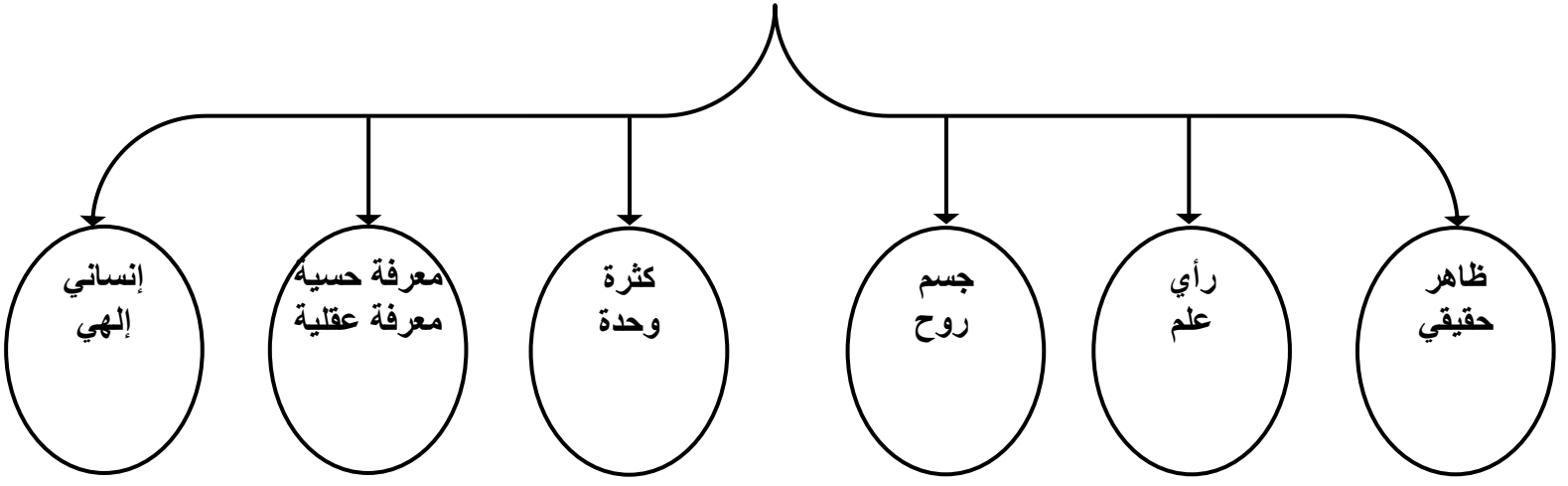

وسوف نجد تماساً كبيراً بين ذلك الرسم التوضيحي الذي يبين تقنيات الخطاب عند برلمان وتيتكاه وبين تقسيمات السكاكي عن الاستدلال في حالات التركيب المختلفة للجمل مع اعتماد السكاكي على ذكر ما يقبل التحديد والتقسيم والتقعيد وترك ما يخرج عن ذلك لفهم المستدل وقدرته على التفنن، أما برلمان وتيتكاه فهما لا يقفان عند ذاك الحد؛ لكنهما يذكرا الطرائق الاتصالية وما تتفرع منها من الحجج شبه المنطقية التي تعتمد البنى المنطقية وغيرها، وكأن "غيرها" هي ما تركه السكاكي لتفنن المستدل، إلا أن برلمان وتيتكاه حاولا حصرها في مواقف حجاجية فكان ما تحدثا عنه في الحجج شبه المنطقية التي تعتمد العلاقات الرياضية، وكان الحديث عن وجوه الاتصال التواجدي، والاتصال المؤسسي لبنية الواقع، كما كان حديثهما عن الطرائق الانفصالية، وما تعنية من فصل بين المفاهيم المتضادة.

وقد جاء في كتاب برلمان وتيتكاه عدد من الآراء في الحجاج نود الإشارة إليها لأهميتها في موضوعنا، ومنها ما تحدثا عنه بشأن الشكل والمضمون ودوره في الحجاج، فالرأي عندهما أن عناصر الحجاج تتداخل وتشكل عملية واحدة، وانه "لا فصل بين الشكل والمضمون في شأن الخطابة، وانه لا يمكن دراسة البنى الأسلوبية منفصلة عن أهدافها الحجاجية"[39].

ويعرض الكاتبان لمجموعة من تقنيات الحجاج التي تجعل كلام المتكلم أكثر حجاجية مهنا[40]:

1 – عدم إضاعة وقت المستمع وتشتيته بذكر ما هو معلوم عنده من المقدمات حتى لايكون ثقيلاً عليه.

2 – اعتماد أسلوب يكون بطيئاً لا عجولاً.

3 – اعتماد التكرار لإبراز شدة حضور الفكرة المقصود إيصالها والتأثير بها.

4 – التشديد على بعض مقاطع الخطاب من خلال الصوت أو من خلال الصمت الذي يسبق أداءها.

5 – كثرة إيراد الحكايات الدائرة حول موضوع واحد.

6 – ذكر مكان الحدث وزمانة.

7 – استخدام اللفظ الحسّي المجّسد دون اللفظ المجرد.

وقد تحدث الكاتبان عن تقنيات الخطاب في الحجاج في الصيغ اللفظية فذكرا منها[41]:

1) انتقاء اللفظة المناسبة المرتبطة بالمقام دون مرادفتها.

2) ضَبطَ الكاتبان الصيغ التعبيرية، ومنها النفي؛ فالنفي إنما هو رد على إثبات فعلي أو محتمل حصوله من قبل الغير.

3) طرائق الربط بين القضايا بواسطة أدوات الاستئناف، فهي تَبنى النتيجة على السبب أو تحدث هرمية في شأن القيم (مثل الواو. أو. لكن، إلخ)، ومن ذلك عبارات من قبيل رقم أنّن وإنْ كذا فهي من التقنيات التي تتيح سلاسة انقياد السامعين إلى حيث يريد أن يقودهم.

4) الصيغ اللغوية ومنها القوالب المكرورة... حيث الخضوع للشعائر وللسنة والعادة، حيث تساعد القوالب المكرورة على الوفاق بين الخطيب والجمهور، شأنها في ذلك شأن الأمثال كي تكون في الخطاب منطلقاً للاستدلال.

5) ومن الأشكال أو الصيغ اللغوية ذات المدى الحجاجي الوجوه أو الصور البلاغية؛ التي كثيراً ما نُظر إليها نظرة أدبية حصرتها في وظيفة التحسين والتزويق، والتي يهم صاحبا "مصنف في الحجاج" النظر إلى بعض الصور البلاغية باعتبارها مستخدمة في الخطاب لحاجات الحجاج، وأنها ذات قيمة محاجية، حتى وإن لم يقبل الجمهور بالأطروحة التي جاء يعرضها الخطاب.

العلاقة بين استدلال السكاكي وحجاج بيرلمان وتيتكاه:

ويعد رأي الكاتبين في نظرتهما للصور البلاغية من الأساسيات المهمة حيث اتفقا فيها مع نظرة السكاكي لعلمي المعاني والبيان في القرن السابع الهجري؛ فقد رأى السكاكي أن صاحب التشبيه أو الكناية أو الاستعارة يسلك مسلك صاحب الاستدلال، ولم تكن كلمة الاستدلال عنده تعني القياس المنطقي حيث عرضنا لتحرجه من عرضه للقياس إلا اتباعاً لمن سبقوه.

وقد ارتبط الاستدلال عند السكاكي بصور مختلفة من تقنيات الخطاب فهو ما يشاهد بنور البصيرة فيُحدث إقناعاً بصرياً ثبوتياً مثل استحضار صورة المشبه به في التشبيه فيكون إلزام المشبه ما يستلزم المشبه به من صفة هي البغية من التشبيه، وهي وجه الشبه مثل: خدها وردة، وقد يكون الاستدلال بسلب صفة الإيجاب والإتيان بعكسها فتكون استدلاً عن طريق السلب مثل خدها باذنجانة سوداء.

وقد يكون الاستدلال بإثبات شيء عن طريق إثبات لصفات تستتبع إثبات ذلك الشيء أو تلك الصفة عن طريق الوسائط مثل الكناية في: فلان جم الرماد، فيُعتمد على الاستدلال العقلي في البرهنة التي تروم ثبوت الإقناع بصفة الكرم عن طريق اللزوم، وقد تكون الغاية عكسية لإثبات عكس الكرم بالفقر أو البخل باستدلال عقلي أيضاً يروم الإقناع بصفة سلبيه مثل: قدر فلان بيضاء.

وقد يكون الاستدلال في خلع صفات المستعار منه على المستعار أو إحلاله مكانه استدلالاً على اتسام المستعار بتلك الصفات إقناعاً للمخاطب دون منازعة؛ كقولنا في الحمام أسد، وقد يكون الاستدلال أيضاً بسلب تلك الصفة للإقناع بعكسها مثل: في الحمام فراشة.

الكلام السابق كان عرضاً لما أتى به السكاكي في رؤيته للعلاقة بين الاستدلال وبين علمي المعاني والبيان متمثلاً في ذلك بالتشبيه والكناية والاستعارة تاركاً الأمر في غير ما ذكر لتفنن المستدل.

وبالرغم من أن السكاكي قد أفرد باباً للاستدلال وتحدث فيه – كما عرضنا – عن رأيه في أن علم الاستدلال متمم لعلمي المعاني والبيان وبيّن من خلال شاهد في كل من التشبيه والكناية والاستعارة كيفية ذلك، فإننا لا نجد داخل المفتاح إلحاحاً أو وقوفاً متعمداً لإثبات رأيه فيما عرض له في المعاني والبيان، لكنه كما ذكر في مفهومه للاستدلال من أنه "إلزام شيء يستلزم شيئاً، فيتوصل بذاك إلى الإثبات، أو يعاند شيئاً فيتوصل بذلك إلى النفي"[42].

فنجده يستخدم مايؤدي إلى ذلك المفهوم، منها: استخدامه – بكثرة – لما يثبت المعنى من ألفاظ تدل على الثبوت، مثل اللزوم – اللازم – يستلزم – استلزم ومشتقاتها، ومثل لفظ يدل – دلّ – استدلّ – ومشتقاتها أيضاً. ومثل وصولاً إلى، أو يتوصل به.

ومن ذلك حديثه – مثلاً – عن الكناية البعيدة "فلان كثير الرماد" يقول[43]: "فانظر بين الكناية وبين المطلوب بها، كم ترى من لوازم، أو مثل أن تقول: جبان الكب أو مهزول الفصيل متوصلاً بذلك إلى كونه مضيافاً، كما قال:

ومايك فيّ من عَيْبٍ فإنيِّ جَبَانُ الْكَلْبِ،مهزول الْفَصِيلِ

يتناول السكاكي هذا البيت الشعري بالتحليل مظهراً ما فيه من أوجه إثبات صفة الكرم والمضيافية ببيان الاستدلال الذي أتى في البيت للإقناع بتلك الصفة يقول: "فإن جبن الكلب عن الهرير في وجه من يدنو من دار من هو

بمرصد، لأنه يعس دونها، مع كون الهرير له، والنباح في وجه من لا يعرف أمراً طبيعياً له، مركوزاً في جبلته، مشعرٌ باستمرار تأديب له، لامتناع تغير الطبيعة وتفاوت الجبلة بموجب لايقوى، واستمرار تأديبه أن لا ينج، مشعرٌ باستمرار موجب نباحه، وهو اتصال مشاهدته وجوها أثر وجوه، واتصال مشاهدته لتلك مشعر بكون مساحته مقصد أدانٍ وأقاصٍ، وكونه كذلك مشعرٌ بكمال شهرة صاحب الساحة بحسن قرى الأضياف، فانظر لزوم جبن الكلب للمضيافية كيف تجده بوساطة عدة لوازم، وكذلك هزال الفصيل يلزم، فقد الأم، وفقدها مع كمال عناية العرب بالنوق، لاسيما بالمثليات منها، لقوام أكثر مجاري أمورهم بالإبل يلزم كما قوة الداعي إلى نحرها، وإذ لا داعي إلى نحر المثليات أقوى من صرفها إلى الطبائخ، ومن صرف الطبائخ إلى قرى الأضياف، فهزال الفصيل، كما نرى، يلزم المضيافية بعدة وسائط"[44].

فاستخدام لزوم ويلزم ولوازم هي نتائج الاستدلالات الدالة على إثبات المعنى والإقناع به وقيامه دليلاً مثبتاً عند السكاكي يتأكد بهذه اللوازم؛ أي أنها وسائل في تقنيات الخطاب تؤدي إلى الإذعان لها، والتسليم بها بما يتفق ومفهوم برلمان وتيتكاه عن الحجاج.

ومن ذلك أيضاً تحليل السكاكي لأبيات نصيب في قوله[45]:

لِعَبْدِالْعَزِيزِ عَلَى قَوْمِهِ وغيرهِمُ مِنَنٌ ظَاهِرةْ

فبابُكَ أسهلُ أَبْوَابِهِمْ وَدَارُكَ مأهولةٌ عَامِرةْ

وَكَلْبُكَ آنَسُ بالزّائِرِ يـ ـن مِنْ الام بالابْنَةِ الّدائِرهْ

يبين السكاكي في تحليله لأبيات نصيب استدلاله على إثبات معنى الكرم فيكرُ من كلمة "دل" تأكيداً لذلك. يقول: فإنه حين أراد أن يكنى عن وفور إحسان عبدالعزيز الخاص والعام، واتصال أياديه لدى القريب والبعيد، جعل

كلبه آنساً بالزائرين ذلك الأنس، فدلّ بمعنى أنسه ذلك بالزائرين على أنهم عند معارف، فالكلب لا يأنس إلا بمن يعرف، ودلّ بمعنى كونهم معارف عنده على اتصال مشاهدته إياهم ليلاً ونهاراً، ودلّ بمعنى ذلك على لزومهم سدة عبدالعزيز، ودلّ بمعنى لزومهم سدته على تسنى مباغيهم هنالك تسنياً بالاتصال لا ينقطع، ثم دلّ بمعنى ذلك على ما أراد، فانظر كيف لوح، مع بُعد المسافة بين أنس الكلب بالزائرين وبين إحسان عبدالعزيز الوافر"[46].

يتضح في تحليل السكاكي لقول نصيب إثباته معنى الكرم لعبدالعزيز ببيان الدليل عليه عن طريق الكناية، يتفق فيها تحليل السكاكي مع ما ذكره عن معنى الإثبات في الاستدلال، وارتباطه بعلمي المعاني والبيان، ويرتبط أيضاً بمفهوم الحجاج كما جاء عند بيرلمان وتيتكاه.

ولا يقف الأمر عند استخدام السكاكي للألفاظ التي تدل على معنى الاستدلال، لكنه يأتي أيضاً – في تضاعيف مفتاحه – بآراء يبين بها كيفية الوصول إلى الإقناع بالمعنى؛ من هذا حديثه – مثلاً – عن التشبيه وكيف يكون مقبولاً فيقول: "أنا أذكر لك ما يرشدك إلى كيفية سلوك الطريق... معدداً عدة منها لتكون لك عدة في درك ما عسى تأخذ في طلبه، منها: إن إدراك الشيء مجملاً أسهل من إدراكه مفصلاً، ومنها: أن حضور صورة شيء تتكرر على الحس أقرب من حضور صورة شيء يقل وروده على الحس، وحال هذين الأصليين واضح، ومنها: إن الشيء مع ما يناسبه أقرب حضوراً منه مع ما لا يناسبه، فالحمام مع السطل أقرب حضوراً منه مع السخل... ومنها أن استحضار الأمر الواحد أيسر من استحضار غير الواحد... ومنها: أن ميل النفس إلى الحسيات أتم منه إلى العقليات... ومنها: أن النفس لما تعرف أقبل

منها لِما لا تعرف... ومنها: أن تجدد صورة عندها، أحب إليها وألذ عندها من مشاهدة معاد... ولكل جديد لذة"[47].

لقد نظر السكاكي إلى البلاغة نظرة الجامع بين الهدف والوسيلة، فالهدف لا يقف عند حد الإمتاع، لكنه أيضاً الإقناع، والإمتاع يسلك سبيل الاستدلال ليكون إقناعاً، والإقناع لايقف عند حد الإقناع العقلي الذي تتخذ من القياس المنطقي والبرهان العقلي مرتكزاً له، لكنه يتخذ من تقنيات الخطاب في التشبيه والاستعارة والكناية، وما يستِّدلُ به المتفنن من غير ذلك، يتخذ من ذلك وسيلة للإقناع.

وهذا هو المفهوم العام نفسه الذي تحدث عنه "برلمان وتيتكاه" في العصر الحديث، ولا غرو في ذلك، فالمعين الذي استقيا منه أفكارهم واحد وهو فكر أرسطو وآراؤه عن الحجاج مع الفارق الشديد بين الاستقبال لما قاله السكاكي بالصمت والتجاهل التام – لما ذكرناه من أسباب – وبين الحُميّ التي أصابت الدراسات الحديثة؛ البلاغية منها واللغوية حيث أصبح الحجاج هو المهيمن عليها بدراسة النظريات المختلفة فيه؛ أو بالبحث في أصوله وعلاقته بما جاء به أرسطو، أو تطبيقاته على النصوص النثرية والشعرية... إلخ.

ولعل فيما ذكرنا ما يُبين عن تلك النظرة الموسوعية التي تميز بها السكاكي في نظرته للبلاغة، والتي ربط فيها علم المعاني والبيان بعلم الاستدلال والتي اتفق فيها مع مفهوم الحجاج في العصر الحديث – ولعل في ذلك – ما يرفع الظلم عن السكاكي عند من أوقفوا البحث فيه على محاكمته لما أتى به من ألفاظ المناطقة والفلاسفة دون نظر لرؤية السكاكي البلاغية مع تصريحه بذلك.

أهم نتائج البحث:

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج نجمل أهمها في الآتي:

(1) كان عصر السكاكي عصراً علمياً مزدهراً، وقد برع السكاكي في مجموعة من العلوم هي الفقه واللغة والأدب والدراسات القرآنية، وعلوم المنطق والفسلفة واللغة الفارسية.

(2) لم تكن شخصية السكاكي شخصية عادية؛ فقد كان يحب إتقان ما يقوم به من عمل، ويجب أن يأتي بالجديد المتفرد، الذي يجعله في المكانة العليا البارزة، كما أنه يحب الإطراء عليه وتقدير ما يقوم به.

(3) اتسمت شخصية السكاكي بالصلابة والقوة، وعدم التخاذل؛ حيث انتقل من مجال السكاكة إلى تحصيل العلوم، واستمراره رغم معاناته الشديدة التي استمرت عشرة أعوام.

(4) تميزت شخصية السكاكي بالقدرة على الاستدلال بربطه بين الوقت وبين حتمية الأثر إذا ما استمر العمل، وذلك قبل دراسته لعلوم المنطق والفلسفة.

(5) بالرغم من دراسة السكاكي لعلمي المنطق والفلسفة، إلا أن مفهوم الفكر الفلسفي عند السكاكي لا يقتصر على ذلك وإنما يتسع ليشمل الفكر الموسوعي الذي يرى ارتباط العلوم ببعضها البعض وبمدى ما يحتاجه كل علم من العلوم الأخرى.

(6) أثبتت الدراسة خطأ الآراء القائلة بأن السكاكي كان السبب في جمود البلاغة ووقف نموها وأن البلاغيين بعده توقفوا فقط عند الشرح والإيضاح والتلخيص وأثبتت العكس؛ وهو أن السكاكي بكتابه مفتاح العلوم كان سبباً في نشاط علمي عند البلاغة لم يكن لولاه ليظهر، وأن كتب الشرح والإيضاح والتلخيص لم يقف الأمر فيها عند حدود العنوان، لكن المفتاح كان منطلقاً – فقط – يقيمون عليه دراستهم التي تنبثق من ثقافاتهم واتجاهاتهم في النظر إلى البلاغة.

(7) تفرد السكاكي برأيه في أنه جعل تمام علم المعاني والبيان بعلمي الحد والاستدلال.

خلص البحث إلى أن صمت البلاغيين القدماء إزاء رأي السكاكي وتجاهلهم له مرده إلى ارتباط الاستدلال بالقياس، ومنه القياس المغالطي الذي يرتبط بالكذب والخداع والسفسطة.

(8) مفهوم الاستدلال عند السكاكي مرتبط بإلزام شيء يستلزم شيئاً فيكون الإثبات، أو معاندة شيء فيتوصل بذلك إلى النفي وقد مثل له بالتشبيه والكناية والاستعارة.

(9) لم يكن السكاكي أول من توصل إلى ذلك المعنى في الاستدلال والتمثيل له بالتشبيه والكناية والاستعارة، فقد سبقه عبدالقاهر الجرجاني إلى ذلك؛ لكن السكاكي مضى بهذه الفكرة قدماً حتى استوت عنده علماً.

(10) اتفق مفهوم الاستدلال عند السكاكي مع مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتيتكاه حيث يرياه درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد درجة ذلك التسليم وقد طبق السكاكي ذلك بطريقة عملية في صور بلاغية مختلفة.

الحواشي المبحث الأول:

(1) تاج التراجم: أبو الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني. حققه وقدم له محمد خير رمضان يوسف – دار القلم – دمشق – الطبعة الولى 1413هـ – 1992م، ص:317.

(2) انظر الطبري: تاريخ الطبري، ج2، ص: 1236.

(3) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: شمس الدين المقدسي، طبعة ليدن، 1902، ص: 284.

(4) البلاغة عند السكاكي، د. أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، 1384 – 1964، دار التضامن، ص: 37، ينظر في ذلك – أيضاً – دائرة المعارف الإسلامية حيث جاء "ولقيت آراء المعتزلة التي نقلت إلى خوارزم في القرن الخامس الهجري الموافق السادس عشر الميلادي أنصاراً كثيرين بين أهلها في عهد متأخر يرجع إلى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) المجلد التاسع. "خوارزم" دائرة المعارف الإسلامية: يصدرها باللغة العربية: أحمد الشنتناوي – إبراهيم زكي خورشيد – عبدالحميد يونس.

(5) ينظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار: جار الله الزمخشري، مخطوطه – مكتبة الأوقاف ببغداد. دون ذكر الصفحة: نقلاً عن البلاغة عند السكاكي: أحمد مطلوب، ص: 38.

(6) الدولة الخوارزمية والمغول – غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية: حافظ أحمد حمدي – دار الفكر العربي 1949، ص: 106.

(7) تاريخ أدبيات در إيران أزميانة قرن بنجم تا أغاز قرن هفتم هجري. الدكتور: ذبيح الله صفا. الطبعة الأولى في طهران 1336، ج2، ص: 317. نقلاً عن البلاغة عند السكاكي: أحمد مطلوب، ص: 38.

(8) لب الألباب في تحرير الأنساب. جلال الدين السيوطي، طبعة إبريل 1985م، ط1، الجزء الأول، ص: 137، نقلاً عن البلاغة عند السكاكي، ص: 47 + وينظر في ذلك الرأي أيضاً دائرة المعارف الإسلامية أصدر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية – انتشار اتجهان – تران – بوذر حمبري. المجلد الثاني عشر "السكاكي".

(9) الفوائد البهية في تراجم الحنفية: أبو الحسنات محمد عبدالحي الكنوي الهندي – دار الكتاب الإسلامي – د. ت – ص: 232.

(10) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الحاجي أمير زين العابدين الموسوي الخوانساري. طبعة إيران حجرية 1307هـ، نقلاً عن البلاغة عند السكاكي، ويذكر أحمد مطلوب أن ما يقوله صاحب كتاب "روضات الجنات" هو نقل عن كتاب "زينة المجالس". ولم تذكر الصفحة في أي من الكتابين + ينظر أيضاً موجز دائرة المعارف الإسلامية – مركز الشارقة للإبداع الفكري. الطبعة الأولى 1418هـ – 1998م – الجزء الثامن عشر "السكاكي".

(11) روضات الجنات، ج 4، ص: 238، نقلاً عن البلاغة عند السكاكي. أحمد مطلوب، ص: 49.

(12) البلاغة عند السكاكي: أحمد مطلوب، ص: 60

(*) حاول د. أحمد مطلوب التوصل إلى سنة تأليف الكتاب، ورجّح أنه أُلف سنة 617هـ، وقد يكون فيما وجده من ذكر السكاكي في مفتاحه لناصر الدين الله الذي تولى الخلافة سنة 575هـ، وتوفى سنة 626هـ ترجيح لذلك، وإن لم يؤكده تماماً. ولكن ما ذكره د. مطلوب يؤكد من طريق آخر ما ذهبنا إليه من أن تأليف المفتاح كان في وقت متأخر من حياة السكاكي.

(13) مفتاح العلوم: السكاكي، مطبعة الباب الحلبي – القاهرة. الطبعة الأولى، 1356هـ، 1937م، ص: 272.

(14) البلاغة عند السكاكي: أحمد مطلوب، ص: 59

(15) دائرة المعارف الإسلامية: أصدر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية – المجلد الثاني عشر – "السكاكي".

(16) الدولة الخوارزمية والمغول – غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية: حافظ أحمد حمدي. اسمه رشيد الدين محمد عبدالجليل البلخي، لقب بالوطواط بسبب قصر قامته وقبح منظره. وقد دخل في خدمة الخوارزميين مند أيام السلطان أتسز خوارزم شاه (521 – 551هـ = 1127 – 1156م) فاتخذ منه رفيقاً خاصاً، كما جعله شاعراً للبلاط في أيامه، ومما هو جدير بالذكر أن تشجيع السلطان أتسزخوارزم شاه لرشيد الدين الوطواط، كان أكبر حافز له على تأليف كتابه المسمى "حدائق السحر في دقائق الشعر". وهو من أقدم المؤلفات الفارسية التي تعالج صناعة الشعر. ينظر ص: 103 – 104.

(17) البلاغة عند السكاكي: د. أحمد مطلوب، ص: 57.

(18) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي: محمد أحمد النسويّ: نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي: دار الفكر العربي – 1953م، ص: 253.

(*) ينظر في ذلك ما ذكره أمين الخولي في موجز دائرة المعارف الإسلامية الجزء السادس "البلاغة".

(19) البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة الثامنة – 1990م، ص: 288.

(20) مناهج بلاغية: د. أحمد مطلوب. وكالة المطبوعات – الكويت. الطبعة الأولى. 1393هـ – 1973م. ص: 248.

(21) نفسه، ص: 252 – 253.

(22) نفسه، ص: 255.

(23) مفتاح العلوم: السكاكي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – 1403 – 1983 ص: 5.

(24) نفسه، ص: 6

(25) نفسه.

(26) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: بهاء الدين السبكي – ضمن كتاب شروح التلخيص – دار الهادي – بيروت – لبنان – دار البيان العربي الطبعة الرابعة 1412هـ – 1992م، الجزء الأول، ص: 4، 5، 6.

(27) التلخيص في علوم البلاغة: جلال الدين عمر بن عبدالرحمن القزويني الخطيب – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – 1350هـ – 1932م، ص: 22.

(28) ينظر: البلاغة عند السكاكي: أحمد مطلوب، ص: 342، وما بعدها.

(29) عروس الأفراح: بهاء الدين السبكي: ضمن كتاب شروح التلخيص – الجزء الأول – ص: 26 .

(30) التلخيص في علوم البلاغة: القزويني، ص: 22.

(31) نفسه.

(32) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان البديع: الخطيب القزويني: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان. د. ت. ص: 3.

(*) يراجع ما ذكره السبكي والقزويني عن الكتب التي رجع إليها كل منهما، حيث تختلف في الاتجاه والتصنيف.

الحواشي المبحث الثاني:

(1) مفتاح العلوم: السكاكي، ص: 6.

(2) نفسه، ص: 432.

(3) الحجاج: كريستيان بلانتان ترجمة عبدالقادر المهيري دار سيناترا. المركز الوطني للترجمة – تونس – 2008م ص: 54.

(4) نفسه.

(5) نفسه، ص: 55.

(6) مذكرة في تيسير المنطق – إعداد د. عمر عبدالله كامل – دار بيرسان – بيروت – لبنان –الطبعة الأولى – نوفمبر 2004م.

(7) رشيد الراضي: الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار – دار الكتاب الجديدة المتحدة – بنغازي – ليبيا، الطبعة الأولى، يناير 2010م ص: 13.

(8) نفسه.

(9) الحجاج عند أرسطو: هشام الريفي: ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم – جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية – تونس – كلية الآداب منوبة، ص:53.

(10) الحجاج في البلاغة المعاصرة – بحث في بلاغة النقد المعاصر د.محمد سالم محمد الأمين طلبة: دار الكتاب الجديدة المتحدة – دار الكتب الوطنية – بنغازي – ليبيا – يونيو 2008م، ص: 25.

(*) ينظر: منطق أرسطو: حققه وقدم له د. عبدالرحمن بدوي – وكالة المطبوعات الكويت – دار القلم – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى 1980 ج3 ص: 771 حيث يتحدث عن كتاب السوفسطيقا، وعن كتاب تبكيت السوفسطائيين ومافيه من تضليل، وعن القياس والمغالطة ص: 771 – 780.

(11) الحجاج والمغالطة: رشيد الراضي، ص: 64 – 65.

(12) نص تلخيص منطق أرسطو: ابن رشد: المجلد السادس والسابع كتاب طوبيقي وسوفسطيقي – دار الفكر اللبناني، ط1، 1992م، ص: 672.

(13) منطق أرسطو: حققه وقدم له د/ عبدالرحمن بدوي – ج3، ص: 773.

(14) الحجاج والمغالطة: رشيد الراضي، ص: 14.

(15) مفتاح العلوم: السكاكي، ص: 435.

(16) نفسه، ص: 438.

(17) نفسه، ص: 440.

(18) نفسه، ص: 441.

(19) نفسه، ص: 441.

(20) نفسه، ص: 441 – 442.

(21) نفسه، ص: 449، 450.

(22) نفسه، ص: 504 – 505.

* توجد همزه الاستفهام في النص بعد أنجدك والصحيح أنها بعد نحن، وقد غيرنا مكانها للصحيح.

(23) نفسه، ص: 505 – 506.

(24) مفتاح العلوم السكاكي، ص: 500.

(25) الاستدلال البلاغي: شكري المبخوت، دار الكتاب الجديدة المتحدة – دار الكتب الوطنية – بنغازي – ليبيا الطبعة الثانية – مارس 2010 ص: 7.

(26) مفتاح العلوم. السكاكي، ص: 506.

(27) دلائل الإعجاز: الإمام عبدالقاهر الجرجاني، تعليق وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، 1976 – 1396، ص: 114.

(28) نفسه، ص: 115 – 116.

(29) نفسه،

(30) نفسه، ص: 116.

(31) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه د. سامية الدريدي – عالم الكتب الحديث – إربد – الأردن – الطبعة الأولى، 1428هـ – 2008م، ص:15 – 16.

(32) نظرية الحجاج في اللغة: شكري المبخوث، ضممن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 351.

(33) نفسه، ص: 363.

(34) البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار: محمد على القارصي: ضمن كتاب أهم نظريات الحاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 389.

(35) نفسه، ص: 394.

(36) الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعني والمبني: باتريك شارودو، ترجمة د. أحمد الودرني – دار الكتاب الجديد المتحدة.

(37) **L'argumentation explication ou seduction: in L'argumentation press universitaire: lyon 1981: P: 30.**

نقلاً عن مناهج الدراسات الأدبية الحديثة من التاريخ إلى الحجاج: د. حسن مسكين – مؤسسة الرحاب الحديثة – لبنان – بيروت – الطبعة الأولى 2010، ص: 159.

(38) الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتكاه: عبدالله صولة – ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص: 209.

(*) ينظر على سبيل المثال: (الحجاج في درس الفلسفة – مليكة غبار – أحمد أمزيل – محمد رويض – علي أعمور: أفريقيا الشرق – المغرب – الدار البيضاء، 2006)، فهو من الكتب الجيدة المختصرة التي عرضت للحجاج

الفلسفي وتحديد هويته وأساليبه، والكشف في ثنايا ذلك عن العلاقة التي يقيمها سواء باللغة (الطبيعية، وكيفية استخدامه لأدلتها الطيعة) أو بالآخر المتلقي الذي يفترض وجوده بالضرورة.

(39) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته: عبدالله صولة، ص: 317.

(40) نفسه، ينظر من ص: 317 – 319.

(41) نفسه، ينظر من ص: 319 – 323.

(42) السكاكي: المفتاح، ص: 505.

(43) نفسه، ص: 405.

(44) نفسه،

(45) نفسه، ص: 406.

(46) نفسه،

(47) نفسه، ص: 350.

المراجع والمصادر:

(1) الاستدلال البلاغي: شكري المبخوت، دار الكتاب الجديدة المتحدة – دار الكتب الوطنية – بنغازي – ليبيا الطبعة الثانية – مارس 2010.

(2) الإيضاح في علوم البلاغة المعاني والبيان البديع: الخطيب القزويني: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان. د. ت.

(3) البلاغة تطور وتاريخ: د. شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة الثامنة – 1990م.

(4) البلاغة عند السكاكي، د. أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، دار التضامن 1384 – 1964.

(5) البلاغة والحجاج من خلال نظرية المساءلة لميشال ميار: محمد على القارصي: ضمن كتاب أهم نظريات الحاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم – جامعة الأداب والفنون والعلوم الإنسانية – تونس – كلية الآداب منوبه.

(6) التلخيص في علوم البلاغة: جلال الدين عمر بن عبدالرحمن القزويني الخطيب – دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية – 1350هـ – 1932م.

(7) الحجاج بين النظرية والأسلوب، عن كتاب نحو المعني والمبني: باتريك شارودو، ترجمة د. أحمد الودرني – دار الكتاب الجديد المتحدة.

(8) الحجاج عند أرسطو: هشام الريفي: ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم – جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية – تونس – كلية الآداب منوبة.

(9) الحجاج في البلاغة المعاصرة – بحث في بلاغة النقد المعاصر د.محمد سالم محمد الأمين طلبة: دار الكتاب الجديدة المتحدة – دار الكتب الوطنية – بنغازي – ليبيا – يونيو 2008م.

(10) الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة: بنيته وأساليبه د. سامية الدريدي – عالم الكتب الحديث – إربد – الأردن – الطبعة الأولى، 1428هـ – 2008م.

(11) الحجاج: كريستيان بلانتان ترجمة عبدالقادر المهيري دار سيناترا. المركز الوطني للترجمة – تونس – 2008م.

(12) الدولة الخوارزمية والمغول – غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية: حافظ أحمد حمدي – دار الفكر العربي 1949.

(13) الفوائد البهية في تراجم الحنفية: أبو الحسنات محمد عبدالحي الكنوي الهندي – دار الكتاب الإسلامي – د. ت.

(14) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: شمس الدين المقدسي، طبعة ليدن، 1902.

(15) تاج التراجم: أبو الفداء زين الدين قاسم بن قطلوبغا السودوني. حققه وقدم له محمد خير رمضان يوسف – دار القلم – دمشق – الطبعة الأولى 1413هـ –1992م.

(16) دائرة المعارف الإسلامية: أصدر بالألمانية والإنجليزية والفرنسية – المجلد الثاني عشر – "السكاكي".

(17) دلائل الإعجاز: الإمام عبدالقاهر الجرجاني، تعليق وشرح محمد عبدالمنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، 1976 – 1396.

(18) رشيد الراضي: الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار – دار الكتاب الجديدة المتحدة – بنغازي – ليبيا، الطبعة الأولى، يناير 2010م.

(19) روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، محمد باقر الحاجي أمير زين العابدين الموسوي الخوانساري. طبعة إيران حجرية 1307هـ.

(20) سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي: محمد أحمد النسويّ: نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي: دار الفكر العربي – 1953م.

(21) عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: بهاء الدين السبكي – ضمن كتاب شروح التلخيص – دار الهادي – بيروت – لبنان – دار البيان العربي الطبعة الرابعة 1412هـ – 1992م، الجزء الأول.

(22) لب الألباب في تحرير الأنساب. جلال الدين السيوطي، طبعة بريل 1985م، ط1، الجزء الأول.

(23) مذكرة في تيسير المنطق – إعداد د. عمر عبدالله كامل – دار بيرسان – بيروت – لبنان –الطبعة الأولى – نوفمبر 2004م.

(24) مفتاح العلوم: السكاكي، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى – 1403 – 1983.

(25) مفتاح العلوم: السكاكي، مطبعة الباب الحلبي – القاهرة. الطبعة الأولى، 1356هـ، 1937م.

(26) مناهج بلاغية: د. أحمد مطلوب. وكالة المطبوعات – الكويت. الطبعة الأولى. 1393هـ – 1973م.

(27) نص تلخيص منطق أرسطو: ابن رشد: المجلد السادس والسابع كتاب طوبيقي وسوفسطيقي – دار الفكر اللبناني، ط1، 1992م.

(28) L'argumentation explication ou seduction: in L'argumentation press universitaire: lyon 1981.